إن هذا الكتاب غير متوفر لدينا بشكل مطبوع. بل قد وصل إلينا نسخة Word من أحد الأخوة لكي ننشره. لذلك ننوه، أننا غير مسؤولين عما يحتويه هذا الكتاب، ولا عن وجود أي هفوات في الطباعة الإلكترونية.

والكتاب ينقصه، بحسب النسخة الإنجليزية، ما يأتي باللون الأحمر، ويمكنك قراءة المقدمة والمدخل هنا.

صمت الرُهبان، كلامهم وحياتهم

الجبل المقدَّس ''آثوس'' مكان سرّ، ينطق في الصمت فيقول كثيراً. وهذا الصمت هو الأزلية بعينها، لأنه لغة الدهر الآتي. فكما أنّ للملائكة القديسين قدرة عقلية أخرى، يتعذّر علينا فهمها، ينقل بها أحدهم إلى المعاني الإلهية، على حدّ قول القديس باسيليوس الكبير، هكذا الحال أيضاً عند الملائكة الأرضيين، العائشين في الجبل المقدّس ''آثوس''. فإنهم يجاهدون مع السماوين –الذين لا جسم لهم– في الحياة والصلاة، ولهم قدرة أخرى ينقلون بها الى سواهم المعاني الإلهية التي يعيشون، وهذه القدرة هي الصمت.

والصمت في الجبل المقدّس، بنوع خاص، أفصح من أيّ بيان. لأنه ''فِصْحٌ صامت''. فهناك لا يتكلمون كثيراً، وإنما يعيشون أسرار الله في صمت، ويحيون الخبرة السلبية للثيولوجيا (علم اللاهوت) الأرثوذكسية. وهم لا يسمعون صوت الله بهذا الصمت وحسب، بل يكتسبون به الفضيلة أيضاً.

قال القديس سمعان اللاهوتي الجديد: ''إنّ للمبتدئين طريقاً سريعةً لامتلاك الفضيلة، ألا وهي صمت الشفتين، وإغماض العينين، وصم الأذنين''.

وصمت الرهبان يعلّمك. نقرأ في كتاب ''الشيوخ'' المعروف باليونانية بال''غيروندیكون'' إنّ ثيوفيلوس رئيس الأساقفة ذهب يوماً الى الإسقيط فالتأم مجمع الإخوة بكامل أعضائه، وقالوا للأنبا بامبو: ''قل كلمة ما للبابا لكي يستفيد''. فرد الشيخ قائلاً: ''إن لم يستفد بصمتي، تعذَّر عليه الإنتفاع بكلامي''.

ينبغي أن تقصد الجبل المقدّس محمولاً بالرغبة في أن تجني من الصمت نفعاً. فإن عرفتَ التعلُّم على هذا النحو حَدَّثَتْك الأشياء كلها.

أجل. ستحدّثك وجوه الرهبان الصامتة، وكهوف المعتزلين المنسحبين الى البراري، والأديرة المجلّلة بالخشوع، وستهمس لك الطبيعة، وحتى الأشياء الجامدة. ستحكي لك هذه كلها قصصاً تاريخية كثيرة، وتنقل إليك تعاليم رائعة.

فهذا هو نهج الجبل المقدّس. إنه يجري حواره'' في صمت''.

وقد يحدُثُ أحياناً أنّ الرهبان يتكلّمون فينفعون، لأنّ حياتهم حسنة. قال إيسيذوروس البيلوسي:''إنّ حياة (حسنة) بلا كلام تنفع بطبيعتها أكثر مما ينفع الكلام بلا حياة (حسنة). فإنّ الأولى تنفع وهي

صامتة. أما الثاني فيزعج وهو يصرخ. لكن إذا اجتمعت الحياة والكلام معاً ''صارت مثالاً لكل الفلسفة''، فإذا تكلّم الرهبان نفعوا، كيفما كان الأمر – كونهم يعيشون عيشة قداسة. وقد أمسوا قيثارات للروح القدس، وأبواقاً سرّية للثالوث القدوس: "المحبة، والكلمة، والحكمة". فلهم أقوال يتفوّهون بها، ذلك أنهم يقومون بأعمال كثيرة متواصلة، وينطقون بالقول إذا سئلوا''.

وثمة سؤال نعرفه من كتب الآباء: ''أيها الأنبا، قلْ قولاً ترشدني به كيف أخلص''. والقول في لغة البرّية هو القول الفصل الصادر عن قلب المعتزل فيها وهو وليد الروح القدس. ويقبله السائل من أبيه الروحي باعتباره جَنى النعمة الإلهية، يُمحّصه بالنطق، وهو ضروري له، لكي يحيا.

فالقول يصدر إذا عن نفس مُحِبَّة لله، جرحها العشق الإلهي. وهو يُقال بقدر ما يبدو على السائل من تعطش إليه. وكما حبلتْ السيدة العذراء الفائقة القداسة بكلمة الآب من الروح القدس وولدتْ يسوع الإله–الإنسان، فعمَّ الفرح الخليقة كلها، كذلك الآباء. فإنهم بسبب نقاوتهم، حبلوا بالقول وهم ينقلونه إلى المتعطشين إليه، وبذلك يُفرحونهم.

جاء في كتاب ''شيوخ الرهبان'' (الغيرونديكون): ''تقدّم بعض الإخوة الى الأنبا فيلكس ومعهم بعض العلمانيين، وتوسلوا إليه كثيراً ليقول لهم شيئاً نافعاً. لكنّ الشيخ صمت. فلما ألّحوا عليه قال لهم: ''أتريدون أن تسمعوا قولاً؟'' قالوا: نعم أيها الأنبا. قال الشيخ: ''لم يعد ثمة مجال للقول. فإنه عندما كان الإخوة يسألون شيوخهم، وينفّذون ما يقولونه لهم، كان الله يمنحهم نعمة من العلى، لكي يعرفوا كيف يتكلمون. أما الآن فإنهم يسألون ولا يفعلون وفقاً لما يسمعون. لذلك إستردّ الله نعمة القول من الشيوخ، فلا يجدون ما ينطقون به، طالما أنّ من كان عليه أن يفعل بموجب الأقوال ليس موجودً''. فلما سمع الإخوة هذا الكلام تنهدوا وقالوا: صّل من أجلنا أيها الأب...''.

يُستدل من هذه الحادثة أنّ القول إستنارةٌ من فعل النعمة الإلهية. فهي تنير أناساً قديسين أنقياء، وتجسّد الحياة بأقوال. كذلك يُنطق بالقول بقدر تعطّش السائل بالإضافة الى أنّ الرهبان يعرفون كيف يجذبون الى الخير أصحاب القلوب المجمدة الباردة مذيبين تجمدها ولو بتوبيخ مُميّز.

فإن تسألهم ببساطة واتضاع ورغبة صادقة تسمع منهم ''إشراقات النعمة'' أقوالاً بسيطة، متواضعة ولكنها مملوءة بالحكمة والنعمة.

وإنهم بهذا ليقتدون بالمسيح ربّهم، فهو كلمة الله الصارخ المدوّي وهو في الوقت عينه، الصمت العميق. فقد كان يتكلم، لكنه كان يصمت أيضاً. فليس تحرك الله نحو الإنسان على وجه التدقيق، ''كشفُ كلمةٍ وحسب، بل هو إفصاح عن الهدوء'' أيضاً. وهكذا فإنّ اتجاه الإنسان إلى الله من جهة، وإلى أخيه الإنسان من جهة أخرى، ينبغي أن يتميّز بهذين العنصرين أيضاً.

وأنت فإذا زرت الجبل المقدّس بغية التعلّم، تتعلّم بالصمت أكثر، وبالقول أقل.

إنّ الرهبان سكان البراري في الجبل المقدّس، هذه الطيور البرّية المغرِّدة يعيشون ''الحياة'' عيشة اختبار، ويسبحون في الفردوس. هؤلاء هم الذين يتألهون حقاً، ويحيون حياة المسيح كلها ''في أوان خزفية''. أعني في أجساد مرهَقة، أنهكتها الرياضة والخدمة.

هناك يشاهد المرء ما يمكن تسميته ''تألهاً'' عملياً لا نظرياً. فالتأله النظري يعلّمه من لا يتذوق العلم الإلهي (الثيولوجيا). إنهم يحيون الإيمان والأعمال – ذلك أنّ الإيمان بلا أعمال مجرد تخّيل، والأعمال هي عبادة أصنام. وعلى أبدانهم الخشنة ارتسمتْ نعمة الله وصورة المسيح بعد أن هجروا العالم وما يصحبه من لطف منافق. قال القديس نيقوذيموس الأغيوريتي (أحد رهبان الجبل المقدّس آثوس): ''مصاف القديسين النسّاك قد تحاشواما يخالف الطبيعة واحتفظوا بما يوافق الطبيعة فاستحقوا المواهب التي تفوق الطبيعة''.

يقع نظرك عليهم فتظن لأول وهلة أنهم ناعسون مكتئبون ولكن متى فاض صفاؤهم الباطني وتدفّق فسرعان ما يغمرك!

وهم أشبه بالسدود العظيمة التي تخزن مياهاً كثيرة في حال من الصفاء والهدوء. حتى إذا انشقّتْ هذه السدود، برز ما كانت تخفيه من قوة شديدة، لأنّ مياهها تندفع لتغمر ما حولها.

وإذا فتح الناسك فاه، شملك بالطيب الذكي، فإنّ أفواه الرهبان القديسين ''ينابيع عسل جارية'' تفيض بالمياه النقية (يوحناالذهبي الفم).

وقد يبدو لك أنّ هؤلاء الرهبان لا نفع فيهم. لكنك سرعان ما تتيقّن أنهم ''أشجار باسقة تناطح السماء، ذات أوراق وارفة الظلال'' تظلّلك وتنعشك.

وتظن أنهم لابسو خِرق بالية، يتعذّر الإقتراب منهم، بسبب عدم نظافتهم المطلوبة، لامتناعهم عن الإغتسال. لكنك سرعان ما تدرك انهم ''نباتات ذات ثمار يانعة، لا تذبل، وزنابق غضة متعدّدة الطيوب الذكية، يغمرُك عبيرها.

كل هذا، لأنّ المسيح يحيا فيهم، وهو الحياة الحقة. ''لأنّ حياتهم مستترة في المسيح''.

إنْ كان فيك روح الله، تتبينَّ وجود حالات مجتمعة معاً، متناقضة في الظاهر، عند كل راهب آثوسي يقتفي خطوات الآباء القديسين ويعيش التقليد الآبائي. إنها حالات الموت والحياة.

فعن الموت تصدر الحياة صدورها عن نبع. وبالتمتع بالحياة يُماتُ الموتُ اكثر. وبقدر ازدياد موت الموت (الخطيئة) يزداد اختيار حياة الحياة (المسيح) المعاشة الى حدّ حياة المرء قيامة المسيح وصعوده. أعني أنّ الخطيئة تُماتُ والحياة تولد. وهكذا نستطيع القول إنّ الرهبان يلبسون الموت كالرداء ينعمون بالحياة. يقول الرسول بولس في رسالته الى أهل رومية: ''بعدما قام المسيح من بين الأموات، لن يموت ثانية، ولن يكون للموت عليه من سلطان'' (رومية 6: 9).

وكتب القديس نيكيتا إستيثاتوس يقول إنّ هذا عينه ما يحدث للإنسان القديس، أي الإنسان الذي صارمسيحاً لأنه إذا أميت ومات حسب العالم يحيا حياة المسيح: ''إنّ الذي قام من أعمال مائتة، قد قام مع المسيح. فإن كان قد قام مع المسيح بواسطة المعرفة –والمسيح لن يموت بعد– فلن يتسلّط عليه أيضاً موت الجهالة، ولا يعيش بعد بالجسد والعالم، ذلك أنه قد أميت في أعضاء جسده وفي أمور الحياة(الدنيوية) لكنّ المسيح يحيا فيه، بما أنه صار بنعمة الروح القدس، غير خاضع لناموس الجسد وصارت أعضاؤه أسلحة برّ، أي صارمقترباً من الله الآب''.

وإنك لتجد أيضاً عند أقطاب الرهبان السكون والحركة قائمين معاً.

فإنهم يحيون ''في سكون دائم الحركة'' و''في حركة ساكنة''، كما قال القديس مكسيموس المعترف. أعني أنهم قائمون في المسيح ويتحركون على الدوام من أجل أن ينعموا به بطريقة أكمل. لأنّ المسيح هو الجوهرة الجزيلة الثمن ذات الأبعاد الكثيرة. هذا ما يشرحه بوضوح القديس غريغوريوس أسقف نيصص بقوله: ''والأعجب من كل شيء هو أنّ السكون والحركة متطابقان. فإن الصاعد لا يقف على كل حال، وأما الواقف فلا ينحدر. أما هنا فبالوقوف يصير الصعود. فبقدر ما يكون المرء ثابتاً في الخير وغير

منتقل، يقطع مسافة أكبر في طريق الفضيلة". أي أنه يبقى ثابتاً في المسيح. هذا هو التعطش إلى المسيح، تعطشاً لا ينتهي وهو الشبع الإلهي في الوقت عينه.

قال أحد الرهبان: "يحدث لي أمر غريب. فإني أجوع لكني أشعر بالشبع"! إلاّ أنّ هذا ليس غريباً عند رجل الله. لأنّ هذه الحال هي"كمال الكاملين الذي لا يكمل" على حد قول القديس يوحنا السُّلَّمي.

إنّ حياة الرهبان هي في صيرورة مستديمة. إنها تصير كلمة، تصير مسيحاً. والراهب المجاهد يحيا كل أدوار عمر المسيح لأنّ المسيح يتجسد داخله، يصنع عجائب، يتحمل الألم، يقوم من جديد ويستعد قوته. وبما أنه يعيش في المسيح فهو يصل الى توحيد عالمه كله، الباطني والخارجي ويتخطى كل التمييزات، ويعود الى ارتقاء أعلى مقام كان للإنسان قبل السقوط، حيث كان آدم في البدء.

يذكر القديس مكسيموس المعترف خمسة تمييزات فشل آدم في تخطيها، وهي التي يستطيع الإنسان الآن النجاح في تخطيها بمعونة آدم الجديد أعني المسيح. وهي كما يلي: "التمييز بين غير مخلوق ومخلوق"، "التمييز بين عقلي وحسي"، "التمييز بين سماء وأرض"، "التمييز بين فردوس ومسكونة"، "التمييز بين ذكر وأنثى". ومن تخطى التمييز الأخير يتقدّم الى تخطي التمييز الأول أيضاً وهو التمييز بين غير مخلوق ومخلوق. أعني أنّ الإنسان قديس الله يقدّم ذاته والعالم كلها بكامله الى الله، ولهذا فإنّ قديساً واحداً هو أعظم محسن للإنسانية.

لقد اقتربتُ يوماً من راهب شيخ قديس من هذا النوع، في الجبل المقدَّس -آثوس- ،وهو شيخ ينعَم بالشبع من رحمة الله التي لايُشبَع منها في ما يشبه الجحر، وقد تخطّى كل شكليّات العالم ولا توجد كلمات تفي بوصفه. فلو قلتَ إنه حكيم لجانبتَ الصواب. ولو قلتَ إنه مجنون لقصر الوصف عن إبراز حجم جنونه الروحي تماماً. وإنك لا تدري ما يمكن وصفه به، كونه قد أفلتَ من أشكال العالم ومظاهره، ومضى قدماً في أعماق الأبدية! إنه يلحس النار الإلهية، وهو في الواقع مُتَّقِد قد أحاطته النار من كل كانت. إنه يشتعل الآن، بالشعلة غير المخلوقة.

إذا تحدثتَ معه ظننتَ أنه سيتّقد ويحترق كلّياً وخلتَ أنه سيغادرك بجسده كما حدث لإيليا النبي يوم غادر الأرض بالعربة النارية!

وتظن ساعة المحادثة معه أنه سيصعد الى السماء كما صعد الرب، ''فيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد الى السماء'' (لو24 :51).

ولكن ما يبدو لك أنه سيحدث، لا يتمّ. ويبدّد ظنك حدث آخر هو شعور الخشوع والإنسجام إبَّان تحدّثه إليك في قضايا روحية وهذا الخشوع أشبه بتلك الدهشة التي اعترت تلاميذ السيد المسيح على جبل ثابور حين ''ظلّلتهم سحابة نيّرة، وصوت من السحابة يقول: هذا هو إبني الحبيب الذي به سررتُ. له اسمعوا. ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً'' (متى17: 5 – 6).

وأثناء حديثك معه ينزل الروح القدس ويحيط بك، ويهيمن عليك، فيعتريك خوف. إلاّ أنك ترغب في البقاء. وفيما يلقي الناسك القديس عليك كلماته البسيطة الكافية، اللازمة، تتذكر المسيح يوم كان يحدّث تلاميذه من الجبل أو من البحر. وفي الحق إنّ الناسك القديس يحدّثك من جبل الثاوريا (الرؤيا) ومن بحر الأبدية، بعيداً عن أمور البشر السطحية، وبعيداً أيضاً عن هذا الذي هو أنت!

إقتربتُ يوماً من هذا الشيخ، وكنتُ أعلم أنه لاهوتي حقيقي. ولم يكن لديه معلومات عن الله. لكنه كان على معرفة بالله ''وهي معرفة غير مدركة عند الجمهور الغفير''. قال القديس غريغوريوس أسقف نيصص: ''الثاولوجيا (العلم بالله) جبل صاعد صعوداً عامودياً مفاجئاً، وفي الحق إدراكه صعب، وجمهور الشعب يكاد أن يصل الى سفح هذا الجبل فقط''.

إنّ موسى النبي هو وحده يصعد الى جبل الرؤية فيصير معايناً الله، وقد عرفتُ أنّ هذا الشيخ هو موسى معاين الله.

شعرتُ لأول وهلة بارتباك. فبماذا يستطيع المرء أن يناقش؟ وأي اتفاق كان بيني وبينه؟ وما هو القاسم المشترك بيننا؟ نحن في الرحلة الأولى للفلسفة العملية. أما هو، فقد انتقل من المشاهدة الطبيعية الى الثاولوجيا السريّة، وهي المعرفة التي لا تنتسى. نحن تكتفنا الأهواء أما هو فعرش ذهبي للملك. ونحن الجحيم أماهو فإنه الفردوس!

لكنّ الناسك نزل أثناء المحادثة من مقامه الرفيع ورفعني الى مقام أرفع. فقد أخلى ذاته وأغناني''لقد كان غنياً فافتقر لكي أغتني بفقره'' وهذا يحدث دائماً، فإنّ الوحدة تتطلّب خروج الإثنين، كما يحصل في الإتصال بالله: ''خروج الله وخروج الإنسان''، وهما الصفة المميّزة للعشق الإلهي. يقول القديس

مكسيموس المعترف: ''إنّ اللاهوتيين يسمّون''الإلهي'' عشقاً تارة وحباً طوراً، وحيناً آخر معشوقاً ومحبوباً. ولهذا يتحرك كعشق وحب من جهة، وكمعشوق ومحبوب من جهة أخرى، فيحرك نحو ذاته كلَّ من يستطيع أن يتقّبل العشق والمحبة''. ويقول أيضاً ''إنّ العشق الإلهي جذّاب لأنه لا يترك العشاق ملكاً لذواتهم، بل مِلك المعشوقين''.

ويضيف القديس مكسيموس في شرحه قولاً لديونيسيوس الأريوباغي فيقول: ''إنّ العشق الإلهي قادر على جذب المرء من موقعه لأنه لا يترك العشاق ملكاً لذواتهم، بل لمعشوقيهم. ويؤكد هذا الأمر أولئك الذين صاروا أرفع مقاماً بعنايتهم بمن هم أقل منهم، ويظهره المتوافقون، بالترابط فيما بينهم، ويبرزه المتخلّفون في الدركات السفلى، بعودتهم نحو الأوّلين، عودةً أشدَّ ارتباطاً بالإلهيّ''.

لقد حفظتُ كلَّ شيء، ليس في ذاكرتي وحسب، بل في أعماق قلبي أيضاً. وها أنا أروي لكم كيف قابلتُ الشيخ القديس، والحديث الذي دار بيننا.

في الجبل عند الأصيل

مالت الشمس إلى الغروب. أماَ ساعات الصباح في الجبل المقدَّس، فهي عامرة بالطيوب، يكتنفها البهاء الساحر، وتتبدَّد ظلمة الليل، فيما الرهبان يرنّمون في قاعات أديرتهم المقدَّسة، ''المجد لك أيها المظهر النور....'' فكأنهم يطردون الدجى بأصواتهم الرخيمة وهي ترتل لله سبحاً، وبدقّات نواقيسهم ذات الألحان العذبة، وبتوسّلاتهم الحارة يقرعون بها أبواب الملكوت بقدر ما لهم من مواهب.

وساعات ما بعد الظهيرة في الجبل المقدَّس مفعمة أيضاً بالهدوء والصفاء. فلقد مر يوم صراع. أما الليل فآن له أن يرخي سدوله، وفيه يخفي الراهب الكثير من جهاداته، والغزير من دموعه، والعديد من رياضاته. والشمس آخذة في الهبوط لتتوارى. لكنّ الشمس القائمة في أفئدة المتقشفين المجاهدين لن تنطفىء. وفي قلب كل منهم، القلب الكلي النقاوة، نهارٌمقيم لا يزول، متلألىء بالنور ولا تعكّره سحب الأهواء.

فيا له من أصيل مدهش في الجبل المقدَّس. أصيل عامر ''بالسحر''، مليء بالروعة والجمال والعذوبة، أصيل يلفُّه الصمت.

***

بعد المساء يخرج بعض المجاهدين بحركات بطيئة ووجه مطرق الى الأرض، من القاعات العامة في الأديرة ومن الكنائس الصغيرة في بيوتهم، الى الطبيعة، طلباً لراحة قصيرة، فيجلسون على مقاعد حجرية ويمعنون في الصلاة ذاكرين اسم المسيح الكلي الحلاوة. وإنهم ليريدون ويصرّون أن يسطّروه على صفحات قلوبهم بأحرف صلاة من ذهب. تجذبني ساعات الصفاء هذه إليها جذباً. حيث تهدأ الطبيعة إلاَّ من صخب البحر يُسمع أحياناً وهو يداعب الصخور، وحيث تلوّن الشمس وجه السماء بعديد الألوان.

للطبيعة في الجبل المقدَّس نعمة أخرى. فإنها موقع إشراق للصلاة والقداسة. أجل، إنّ النعمة غير المخلوقة تعبر من النفس الى الجسد ثم تمتد الى الطبيعة، غير العاقلة، والى كل الخليقة. ولن تجد هناك شيئاً متوحشاً، أو إنك على الأقل لا تراه كأنه وحشي لأنّ كل الأشياء فيه هادئة. فالجبل المقدَّس يظل طوال الليل وأثناء النهار مشتعلاً بالصلاة. والطبيعة ذاتها تهذّبها أصوات الرهبان العذبة الشجيّة، وألحان النواقيس الحلوة، وكذلك الطاعة.

قال أفجانيوس البلغاري: ‘‘ها هناك المياه تتدفق بالحُسن، والهواء شديد الإعتدال، والندى الرطب ينعشنا، أحراج وارفة، وظلال في كل مكان، وأعشاب خضراء يانعة تبهج النظر، ونبات من كل الأنواع، وأشجار زيتون وكروم عنب، والآس والغار والريحان، وأصمتُ عن أغراس أخرى، بعضها للأكل والبعض الآخر لمتعة النظر وكلّها من أرض خصبة، ورفوف من الطيور المغرّدة الصدّاحة، بينها البلبل والورواروالقبَّرة تتبارى وهي عابرة هنا وهناك وأصوات الفتيان من محبي الموسيقى الذين يتعلَّمون هناك بتصريح خاص.’’

***

لا تجذبني الطبيعة كثيراً، غير أنّ لطبيعة الجبل المقدّس حلاوة وجمالاً من نوع آخر. وقد يكون سبب هذا أنّ المرء يشاهد الطبيعة هنا من خلال رؤيته للرهبان المتألهين فيستنير، أو لأنه لا يبصرها بالعين أو بالعقل وإنما بالقلب المتأله. والقلب يعرف أن يحب ويقدّر. وقد يساعد الهدوء على هذا، لأنّ العيش، على حد قول القديس غريغوريوس بالاماس، إذا تجرّد من الإنكباب على الإهتمامات الدنيوية، إبتغاء الرجاء في الله، حفز النفس بطريقة طبيعية الى فهم خلائق الله’’.

الصعود الى ثابور... جبلي..

كانت ساعة الأصيل. وبينما الشمس في طريقها الى المغيب كنتُ أشق دربي صعوداً إلى فوق، لكي أشرق بالنور فيلاقيني غروب الشمس وأنا أصعد على درب ضيّقة يصعب المرور عليها. وكنتُ متجهاً نحو الشرق!

ونحن بإيماننا الضئيل نستصعب صعوداً كهذا، فيما يفرح به المؤمنين الذين جعلوا قرارهم البطولي فعلاً، فأنكروا العالم، بكل ما فيه من مغريات وافراح، وأحبوا التنسّك.

كنتُ صاعداً الى الجانب الشمالي من الجبل المقدَّس، وأردتُ تطبيق قول يوحنا الذهبي الفم ''طالما أنّ عشقك لايزال حاراً، فاتّجه صوب الملائكة وزدْه حرارة، فإنّ الكلام الذي لدينا يعجز عن إيقادك كما تشعلك رؤية الأمور الحاصلة''.

ترتفع الى اليمين واليسار صخور شمّاء، رؤوسها حادة مسنَّنة، كأنها تشقُّ عنان السماء كما تشقُّها أيضاً حياة ساكني الجبل وترانيمهم.

وكنتُ أسير حاني الرأس، والدعاء على شفتي وفي قلبي وعقلي. فبمثل هذه الطريقة ينبغي على المرء أن يزور الجبل المقدَّس وأن تكون مشاعره مشاعر الحاج البسيط.

وإنك لتشهد داخل الصخور على مسافة قصيرة من الدرب بيوتاً صغيرة، هي قلالي الرهبان الآباء النساك المعتزلين. ترى إحداها داخل كهف، وأخرى بارزة قليلاً، تخال وأنت تتأملها أنها موشكة على السقوط في البحر. في هذه الكهوف الصغيرة، يعيش النحل الروحي الذي يصنع عسل الهدوء الكلي الحلاوة.

ولقد تذكرتُ الترنيمة التي نظمها القديس نيقوذيموس للإشادة برهبان الجبل المقدَّس.فأخذتُ أرتلها:

أيتها الخلية التي جمعها الله في جحورالجبل وكهوفه،

تصنع عسل الهدوء الكلي العذوبة، كأنه في قفير عقلي.

وتجد مثل هذه القلالي في الجانب الجنوبي من الجبل في ما يسمونه بالكاروليا. هناك المشهد أشد إثارة وروعة. يقول الرسام المعروف فوتي كوندوغلو: ''هناك الصخور ذات السطح الأحمر التي يظن الناظر

إليها أنها مطلية بالصدأ، وقد امتد فوقها عدد ضخم من البيوت حتى أعاليها، وبعضها كهوف سدُّوا مداخلها بجدران، تاركين لها باباً صغيراً. وفي مكان آخر موقع بارز من الصخر سُمح لأحد النساك المجازفين أن يبني عليه كنيسة صغيرة ذات قبة، مع قلاية أو قلايتين وحديقة صغيرة حمل لها ترابها من مكان آخر. وهي تطل عليك بباقة من الورود في شجيرات مخضرّة تضفي على الموقع شكلاً باعثاً على الدهشة. أما اللون الظاهر الذي نُسِجَتْ به كل هذه المآوي الخفية فيدعو المرء الى تشبيهها بأعشاش حجل البحر.

ويتَّصل النساك فيما بينهم، بواسطة دروب صغيرة، لا تّتسع إلاَّ لشخص واحد، خطر الإنزلاق فيها شديد، ولا يمكن تبيُّنها من ناحية البحر. ويحتاج من يرغب في تسلّقها الى اتخاذ قرار جريء وفي غاية الخطورة. وهناك العديد من النساك قبع كل واحد منهم في مسكنه الضيق لا يرضى عن يديلاً، ولم يتخطَّ عتبة داره الضيّقة طوال سنين. لذلك تجد مقابر في مناسك أوسع من هذه ومراقد داخل الكهوف حيث تُحفظ عظام الإخوة، وعلى رأس كل جمجمة حُفِرَ إسم صاحبها وتاريخ رقاده.

إنّ هذه الحجلان الروحية، حمائم السماء، قد انبثَّتْ يميناً وشمالاً وهي تعيش الله، وتمضي صعداً، حتى السماء الثالثة".

***

هذا المشهد يراه أيضاً من يصعد على الدَّرب الضيّق، في الجانب الشمالي للجبل. وهو الذي سِرْتُ فيه صاعداً في ذلك الأصيل. وإنه ليهزُّ الكيان هزاً عنيفاً، إذ يحس المرء فيه بنعمة الله تنعشه وتنشطه، والأحرى أن يقال إنها تلذعه بنارها، وهي أشبه بعليقة موسى الملتهبة. لكنها غير محترقة. وتمدُّه الذاكرة بمشاهد من حياة آباء سابقين، مرّوا من ذلك المكان، وهم يرقدون بهدوء وسكون، في انتظار صوت رئيس الملائكة ومجيء الختن الذي يتقدم كل منهم إليه كعروس. وفي الحق، إنّ هذا المشهد ليقطع القلب عن العالم بكل حسناته. فلقد جاهد هؤلاء الآباء طوال الحياة، من أجل الحصول على السلام، فنالوه ونعموا به، وهم الآن يستريحون في أحضان إبراهيم. وإنّ صوت المسيح المنادي: "لم يمت وإنما هو نائم" ليدوّي ويُسمَعُ صداه بقوة في تلك الأماكن النائية...

***

وفي صعودي كانت أفكاري ومشاعري مغايرة. فالهدوء ناموس المنطقة، لكنك تسمع هنا وهنالك بعض العصافير المتوحشة، تصرخ محلّقة، أو تنتهي إليك أنغام بلابل مغرِّدة قال القديس نيقوديموس: ''إنّ آثوس يغذي العديد من البلابل الصالحة''. وكانت تُسمع بين حين وآخر طرقة قوية. وحثثتُ السير الى أن وصلتُ الى بيت صغير حيث رأيت ناسكاً بدا لي هادئاً، وهو يجهد نفسه ليحطّم صخرة كبيرة.

قلت له: ''بارك أيها الشيخ '' (إفلوغيتِه غيرونْدا).

فأجاب: الرب... (كيريوس...).

هذه هي التحية.... المعتادة في الجبل المقدَّس. فإذا سألتهم بركة أجابوا: الرب... (أي ليباركك الرب)، لأنهم يعرفون أهمية المسيح للحياة الروحية ويدركون عجزهم. ولكنهم يكررون اسم الرب، موضع شوقهم وحنينهم، بصورة مستمرة، طالما أنهم يعيشون حضوره. فهو ماكث وقائم معهم، يحلّي القلب ويبهجه بتعزية الروح القدس.

قلتُ للشيخ: ''ماذا تعمل هناك أيها الشيخ''؟

فأجاب: ها إني يا بنيّ أحاول تحطيم هذه الصخرة لكي أبني بركة صغيرة أجمع فيها ماء مطر لكي أشرب قليلاً، فإني عانيتُ في العام الماضي من العطش كثيراً.

قلتُ: ولكنّ هذا عمل شديد الصعوبة مرهق، فكيف يتأتىّ لك من دون العدة المناسبة؟

قال: ماذا أفعل؟ طالما أنّ الجسد يحتاج الى الماء. إنّ الله يساعدني. يجب ألاّ نملك شيئاً هنا في البرّية. ولكنّ القليل من الماء ضروري. أدخلْ الى القلاية لكي تباركها لنا!

فكرتُ في داخلي: ''أأنا أبارك قلاية المبارَك''؟ وهل أنا الملطَّخ بالدَّنس أُبارك الُمطهَّر؟

***

دخلتُ باحترام عميق الى القلاية. وإنك تدخل الى قلاية ناسك بورع، كأنها مكان سرّ. كانت القلاية غير مكَّنسة وينقصها الترتيب. ولكنّ هذه تفاصيل دقيقة في الجاهد الروحي. فأين الوقت لمثل هذه الأشغال؟

أحضر لي الشيخ قليلاً من الماء وقطعة من راحة الحلقوم إظهاراً للمودّة. وإنك لتحس إحساساً حقيقياً في البرّية بالحب الصادق البريء لا غش فيه. ففي الطبق الصغير، ومع القليل من الماء وقطعة الحلوى الصغيرة ثمة قلب الراهب بكامله. لأنه يقدّم لك كل ما لديه.

قال: أأنت قادم من العالم؟

قلت: أجل.

قال: كيف حال العالم؟

هذا هو السؤال الذي تسمعه عادة في الجبل المقدَّس. لكنه هذه المرة ذو مغزى عظيم، لأنّ الراهب السائل قد هجر العالم منذ خمسين عاماً من دون أن يعود إليه! والناسك يعلم أيضاً معنى العالم. إنه خليقة الله ويصير في الوقت عينه خدعة الشرير. أفلم يخدع الشيطان آدم بالكائنات؟ وكم منا من لا يصاب بمثله؟

قلت: العالم أيها الشيخ نأى كثيراً عن الله. إنه لا يذكر الله أبداً ولا يعيش كما يليق به تعالى. فقد أَقْفَرتْ الكنائس من العابدين وامتلأت بؤر الشيطان. لقد هجر العالَمَ الآباءُ الروحين، فغصّتْ مستشفيات الأمراض النفسية بالمرضى. العالم تقلقه أشغاله، وانهماكاته منحصرة في الأمور الدنيوية وحدها. اليوم عندنا إنتخابات، وغداً تسقط الحكومة وبعد غد تعقد مؤتمرات، الخ.. لا يقرأ سوى الجرائد اليومية، أما الكتاب المقدَّس فيجهلونه. وهم يقضون الساعات الطوال في مشاهدة أفلام الشيطان التي تخدرهم، ولا يشاهدون حياة القديسين...

قال الناسك القديس: "ياللعالم المعذَّب الشقي. إنّ الشيطان يحكمه، وهو يأتيه كلَّ يوم بحالات وحوادث لكي يسلبه الإهتمام بتذكّر يسوع، فيكف عن رؤية ذاته وجراحه الباطنية، ويكون الآخرون موضع اهتمامه، من دون نفسه. هذا الهرب ينشيء الصراع الباطني الذي ذكرتموه. إنّ آدم قد أخطأ فتوارى، وهرب من أمام الله فتوالت عليه النوائب بعد ذلك. وهذا ما يفعله البشر. إني أصلي طويلاً من أجل خلاص كل العالم: "ياربي يسوع المسيح إرحمني وارحم عالمك"، وأقضي الليل كلّه مصلّياً، لكي يرأف الله به. هذه هي رسالتنا في هذا العصر المضطرب. وقد أُلْقِيَتْ علينا القرعة، لنكون شهود...

لقد قال لي ذلك الناسك أشياء كثيرة. وزائر الجبل المقدَّس يسمع في كل خطوة مثل هذه الأقوال الحكيمة.

شكرتُه والتمستُ دعاءه، وتمنيتُ أن يذكرني في صلواته.وخرجتُ من قلايته مفكراً. وهذه القلاية هي الآن قبره. لكنه سيقوم من هناك الى الحياة الحقة.

المقابلة مع رجل البرّية

تابعتُ مسيرتي نحو الأعالي، قاصداً جبل تجلٍ، فوصلتُ بعد قليل، لكن بجهد كبير، الى البيت الذي أروم زيارته. ووقفتُ برهة لأنشّف عرقي.

وجالت في ذهني فكرة، هي أنّ قلاية الناسك المعتزل في البرّية ليست خدراً للسرّ وحسب، بل هي أيضاً خدر سماوي. والساكن فيها هناك، الشاغل ذاته بالهدوء والصلاة، هو رسول للمسيح. هذا ما يقوله القديس غريغوريوس بالاماس في عظة له ألقاها في مدينة سالونيك، وقد انتهز فرصة الكلام عند ذكر حال الرسول توما الذي لم ينُعَم عليه برؤية السيد المسيح القائم من الموت يوم ظهوره للتلاميذ في أحد القيامة، لغيابه. لكنه بعد ثمانية أيام فيما كان مع زملائه التلاميذ ''رأى الرب''. ورجل الله القديس يقدّم النصح للمؤمن قائلاً ''فليفتّشْ باجتهاد، بعد القداس الإلهي يوم الأحد، عن شخص مقتدٍ بأولئك الرسل يقيم منعزلاً مغلقاً على نفسه مدة طويلة يقضيها مشتعل الشوق الى المسيح بالصلاة والترنيم في هدوء وبتناول طعام مناسب. ومتى وجده فليدخْل الى بيته الصغير بإيمان، كأنه داخل الى خدر سماويّ، يحوي في داخله قوة التقديس، أي قوة الروح القدس. وليجلسْ الى جانب الساكن فيه، وليُقِمْ عنده ما استطاع وليتحدثْ معه عن الله والأمورالإلهية، سائلاً ومتعلّماً باتضاع، وملتمساً المعونة بالدعاء. فمن ينسج على هذا المنوال يأتِ المسيح إليه بصورة غير مرئية، ويهبه سلاماً داخل نفسه ويدفعه الى التقدم بالإيمان ويمنحه أيضاً دعمه ويرتبه مع المختارين، في زمن ملكوت السماوات...''

***

اقتربتُ من تلك القلاية عملاً بوصية القديس، معتبراً إياها الخدر السماويّ. وقد تولَّد في داخلي شعور بأنّ ذلك الشيخ هو رسول للمسيح قد شاهد الرب القائم من الموت، وهو الآن موجود في علية أورشليم. فهو إذاً قد تألّه، وله كل ما لله ماخلا جوهره. قال القديس غريغوريوس بالاماس: ''كل ما لله يكون أيضاً للمتألّه بالنعمة، بدون التطابق حسب الجوهر''.

فكيف لي أن تكون نظرتي إليه نظرة مخالفة طالما أنّ القديس غريغوريوس مشاهد الله يدعوه هكذا؟ وقد كنتُ مثل توما أشتهي أن أرى الرب. فاتخذتُ قراري، بتواضع عميق وانسسحاق، أن أسأله، وأن أعيش

ما سيقوله لي. وسيدرك قارىء كتابي هذا أني بتلك المحادثة عن الله والأمور الإلهية، قد أحسستُ بسلام عميق يغمر نفسي...

***

قرعتُ باب كوخه الخارجي. وكان الهدوء اللانهائي مهيمناً على المكان، فأثار فيَّ شيئاً من الرعب فارتجفتُ، وسمعتُ خطوات بطيئة، وانفتح الباب بهدوء وبرز أمامي أحد مريدي الشيخ.

فقلت: باركوا...

أجاب: الرب...

قلتُ: أتمنى أن أقابل الشيخ إن كان هذا ممكناً. فهل هو منهمك الآن في العمل؟

إذا زرتَ أحد النساك من المعتزلين في البرّية فاحرصْ على أن تكون شديد التمييز. فقد توقفه عن متابعة صلاته. وقد يكون في حال اختطاف إلهيّ على جبل ثابور، وأنت تهبط به إلى الأرض التي تعجّ بالضجيج فيكون هذا أعظم شر ارتكبته ضدَّه. وهو لا تضايقه شتائمك، وإنما تحزنه فقط دعوتك له إلى النزول من الجبل. غير أنك في الوقت عينه تجلب لنفسك أعظم خير، لأنه إذا حضر لمقابلتك ملأك بطيب إلهيّ، زكي الرائحة، وبهرك بالنور الساطع الذي جمعه فتعمى. فهو كما يقول القديس غريغوريوس بالاماس "يخرج من الصلاة وكأنه ملتهب بالنار، كما حدث لموسى. فقد كان يسطع نوراً يوم هبط من جبل سيناء فلم يقدر الإسرائيليون أن ينظروا إليه لأنه كان كالحديد المحمر حين يخرج تواً من النار. وإنك لتشمُّ "رائحة الخلود".

قال لي التلميذ: سأسأل. وذهب ثم عاد بعد دقائق، وقال لي: إنّ الشيخ مريض، لكنه سينهض لكي يراك. فإن شئتَ يمكننا الإنتقال إلى الداخل.

جلستُ بعض الوقت مع هذا الراهب الشاب.وقد أثّر في نفسي تأثيراً عميقاً شبابه وحياته في هذا المكان النائي، الموحش، القاسي، فأعجبتُ به عن غير سابق معرفة.

سألته: "هل عددكم كبير هنا"؟

قال: الشيخ ومريدوه الثلاثة.

قلت: أريد أن أتناقش في بعض الأمور التي تشغل فكري وقد جئتُ إلى هذا المكان القفر لهذه الغاية.

قال: حسنٌ ما تفعلون. أما الحجاج فينبغي أن يأتوا إلى هنا محمولين بمثل هذا الشعور. ولكنّ بعضهم يأتي إلى هنا بدافع الفضول وحب الإستطلاع الخارجي. فإنهم يجيئون لكي يروا الشيخ في الظاهر وحسب، ليعودوا بعد ذلك، ويفتخروا بأنهم قابلوه... إنّ هؤلاء ليرهقونه إلى أبعد حد. فهو يشعر بهم وكأنهم زائرو حديقة حيوانات أو سائحون... فيحسن بكم إذاً أن تسألوه في موضوعات ومسائل روحية تشغلكم، ويجدر بكم أن تضعوا في اعتباركم أنه لا تُكَرز هنا نظريات. فإنّ ما يقال معاش. إنه اختبارات حياتية، يعيشها الشيخ، وهو يفصح عن القليل منها لمنفعة زائريه..

وما كاد المريد يُتِمُّ كلامه حتى ظهر أمامي الأب... كأنه شمس أشرقتْ فجأة، وربيع أشاع الفرح، وبرق ساطع في دجى الليل، وقد تدلَّتْ من وجهه لحيته الناصعة البياض كأنها شلال. أما عيناه فلامعتان، نّيرتان، سابرتان، قادرتان على التغوّرفي الأعماق، ونادراً ما شاهدتُ باصرتين متجلّيتين مثلهما.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس إنّ الرسل قد شاهدوا النور غير المخلوق، على جبل ثابور، بعد أن تجلّت أعينهم قبل ذلك بقوة الروح القدس فصارت قادرة على رؤيته.

قال حرفياً: ''أترى؟ إنّ الأعين التي تنظر حسب الطبيعة إلى ذلك النور هي عمياء، لأنه غير حسّيّ، فلا يراه الناظرون إليه بأعينهم الحسية، وإنما تراه الأعين التي أعيد تركيبها بقوة الروح الإلهي، فتغّيرتْ وهكذا شاهدتْ التغير، لا التغير الذي جرى أخيراً بل طرأ على طينتنا مذ تألهتْ بالإتحاد بكلمة الله''.

وللشيخ هنا عينان متغيّرتان، بسبب كثرة مشاهدته لنور ثابور، ويمكن تبيُّن هذا التغير الكليّ الجمال بوضوح.

قلتُ: ''باركوا...'' وانحنيتُ في الوقت عينه لكي أعمل المطانية وأُقّبل يده المقدَّسة المجرَّحة.. التي أدمتها السَّجدات العميقة. إلاّ أنّ الشيخ أسرع إلى الإنحناء أكثر مني ولثم يدي فوقفتُ مبهوتاً. وقلتُ له: لكن أيها الشيخ..أأنتم تفعلون هذا لأجلي، أنا عبدالله البطّال، العاميّ؟

فقال: لكنك كاهن حائز على نعمة الله. وهل أطلب منك شيئاً أكثر من هذا؟

قلتُ: نحن مملؤون بالخطايا. لأننا نحيا في العالم ‘‘السيّء السمعة’’ بينما تحيون أنتم في البرّية حيث يملؤها حضورالله نعمة، فصرتم هياكل الله، وعرشاً ذهبياً للملك. لابل أنتم شاروبيم ناري وكما قال القديس غريغوريوس اللاهوتي‘‘قد سجّلتم الأسفار المقدَّسة ثلاثاً صفحات القلب، فأصبح لكم ذهن المسيح وصرتم مسكناً حيّاً للمسيح في الروح’’، فلماذا تعاملونني هكذا؟

قلتُ هذا بصوت شاكٍ كأني هُزِمْتُ. والحقيقة أنّ قداسته وتواضعه قد هزماني. فكثيراً ما تلسعك نارُ تواضع الآخر أكثر من كلامه، ويهزك هزاً بحبه أكثر من توبيخه.

قال وهو يخفض رأسه: آه... يبدوأنكم تجهلوا طابع البرّية. فإنّ إحدى ميزات الهدوء الشعور الحياتي بالخطيئة. فإذا يأمل المرء ذاته يومياً وجد حالات الخطيئة قابعة في داخله وأحس بتحركات الشرير فلا يلبث أن يشعر شعوراً حقيقياً بأنه أسوأ الخطأة. أريد أن تصدّقني يا أبتِ: إنّ كل من يدخل إلى قلايتي هو أقدس مني. إنه أحد ملائكة الله

***

لم أقل شيئاً. وقبض على يدي، وبمزيد من المحبة قادني كما يقود الأعمى وأرشدني إلى الكنيسة الصغيرة. فشعرتُ في تلك الساعة أني أعمى أمام نور الشمس المبهر، وأني ضعيف أمام الجبار، وطفل صغير أمام الشيخ الحكيم. وما كان عمله هذا سوى تمهيد لإرشاد آخر سيقدّمه لي بعد قليل، أوه...إنك تشعر عنده بالأمان وبنعمة لا يمكن وصفها، وإني لأحسّ بحرارة يده الآن!

مررنا من بابين صغيرين، لابد لك أن تنحني لكي تعبرهما. كل شيء هنا يدلّ على الإتضاع. فيجب أن تدخل قلاية ناسك البرّية وأنت منحن وأن تنسى كيف كنتَ أو ماذا تكون، فالمكان هنا لا يتسع للمتكبرين المتعالين والأنانيين.

دخلنا الكنيسة الصغيرة فدعاني إلى السجود أمام أيقونات الأيقونسطاس والمائدة المقدسة في الهيكل فيما أخذ يشعل القناديل ويرتل في الوقت عينه طروبارية القديس شفيع الكنيسة.

***

أول ما يقولونه لك إذا دخلتَ ديراً أو قلاية هو أن تسجد أمام أيقونات الكنيسة. وأول مجاملة من جانبهم هي أن يتيحوا لك السجود أمام الرفات الشريفة. فهذه هي الأمور الأهم عندهم في كوخ فقير. وهم يعيرونها كل الإهتمام. إنّ رفات القديسين التي يحافظون عليها بكثير من الورع والإحترام، تدلّ على غياب القديسين من العالم وعلى حضورهم فيه أيضاً بالنعمة. فمنذ خروج نفس القديس من جسده من بعد اكتمالها تستلم النعمة الإلهية جسده أيضاً. وهذا ما يفسر عجائب رفات القديسين ورائحتها الذكية كما يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد.

في هذه الكنيسة يشعر الشيخ ومريدوه بصلاح الله ويشتركون في العشاء السرّي.

***

قادني بعد ذلك، إلى مكان قريب، قال إنه غرفة إستقبال، تحتوي على بعض المقاعد الصغيرة. وكان على رفوف أحد جدرانها بعض الآباء: فيلوكاليا (أقوال كبار النساك وشيوخهم والآباء الصاحين)، غيروندیکون (قصص شيوخ الرهبان وحِكَمُهم)، مقالات إسحق السرّياني، وأفرام السرّياني، وغريغوريوس بالاماس، وسواهم. جلسنا على مقعدين صغيرين وجذبني إلى مقربة منه واستغرق في صمت. وكان واضحاً أنه يصلي من أجل أن ينيرني الله فأكشف هناك عن ذاتي، ومن أجل أن ينيره الله هو أيضاً لكي يقول لي ما يجب قوله.

مباحثة مع الشيخ في الصلاة

بدأتُ الكلام بصوت منخفض قائلاً: أيها الشيخ القديس، لقد استولتْ عليّ في هذه الأيام رغبة شديدة أعتقد أنّ الله قد زرعتها في نفسي. إني أريد أن أطهر. أرى داخلي يعجُّ بالأهواء، وأشاهد قلبي كأنه غابة مدغلة متوحشة تأوي العديد من الوحوش الضارية والشيطان فيه سيّد يعيث فساداً كيفما شاء. أجل أريد التحرّر من هذه الحال الرهيبة بتقديم ذاتي بكاملها لله لكي ينيرها، فتكون له. فقد سطا عليها الشيطان الشرير كثيراً. إني أريد أن أطهر، ولكني لا أعرف كيف أحقق ذلك. اسمعني أيها الشيخ، إني أريد أن أطهر، فأرشدني إلى الطرق الناجعة وأنا مستعد لقبولها، ولتنفيذ كل ما تقوله لي، بطاعة عمياء.

كنتُ قد بدأتُ الكلام بصوت منخفض لكني ختمتُه بنبرة عالية، باكية. ولا بد أنّ كلماتي الأخيرة نزلتْ على أذنيَ الشيخ كالصاعقة. فنظر إليّ بمحبة بالغة شأنها شأن المحبة التي يعرف الرهبان وحدهم إظهارها وترك في نفسي انطباعاً بأنه ينبغي ألاّ أنزعج من هذا القلق فإنه قلق مبارك.

قال: من الواضح أنَّ الروح القدس يكون حاضراً ويعمل في داخلنا عندما نعيش هذه الحالات. فنحن بذلك نكون قد شرعنا في التقدّم في طريق مشاهدة الله. هذا هو المقام الأول في طريق المشاهدة. وإذا كانت الرؤية الكاملة للنور غير المخلوق نوراً يلطّف النفس ويبثُّ فيها الهدوء، فإنّ التوبة وشعورنا بأنّنا في حال خطيئةٍ نورٌ يوقد النفس ويلهبُها. فالتوبة والرغبة في تطهير النفس من الأهواء هما ساعة النعمة الإلهية. فهي وحدها التي إن حلَّت في داخلنا تجعلنا قادرين على الشعور بعزلتنا، فنحنُّ إلى العودة الله ونجاهد لكي نتّحد به. ومن المحال أن تجول في ذهننا مثل هذه الأفكار وأن تكون لنا هذه الرغبة إن لم تأتِ نعمة الله.

إنه مرشد حكيم، واسع الخبرة، ورحي. ومن الحق أنه رجل حلّتْ فيه نعمة الله. وهو كالطبيب الماهر يعلم كيف يطمئِنُ وكيف يبث فيك السلام، ويعطيك دواء مهدّئاً لا ليريحك راحة تغلب عليها الأنانية، بل ليتسنى له المضيّ في المعالجة حتى إجراء العملية فيشفيك. وتابع كلامه فقال:

– بعد أن نوضح هذه النقطة، سيكون عليّ أن أنصحك بانتهاج بعض الطرائق أو بالأحرى مجرَّد طريقة واحدة في غاية البساطة. فلا تنتظر مني أن أكلفك القيام بأمور ثقيلة جداً. عليك فقط بالصلاة إلى يسوع: "يا ربي يسوع المسيح، إبن الله، إرحمني" فإنه يطهّر نفسنا.

وأعني بهذه الصلاة صرخة استغاثة بلا توقف ترفعها إلى الله مخلّصنا. فإنّ في استدعاء يسوع والإتحاد به يمكن خلاصنا كله. وما علينا إلاَّ أن نناديه لكي يوافينا، فإذا أتى شفانا. نحن نصرخ كمرضى، وهو يأتي لمعونتنا، كطبيب محبّ كالساقط بين اللصوص، علينا أن نستغيث، فيأتي السامري الصالح ليطهّر جراحنا ويقودنا إلى الفندق، أعني مشاهدة النور الذي يشعل كياننا كله. حين يأتي الله قلبنا، يقهر الشيطان ويصدّه وينقّينا من الأدناس التي أحدثها الشرير فينا. يتضح من هذا أنّ الأنتصار على الشيطان هو نصر للمسيح بواسطتنا. فنحن علينا القيام بالجانب البشري وهو أن نستدعي المسيح. أما هو فيقوم بالجانب الإلهي ليهزم الشيطان وينقّينا.

لذا ينبغي ألاّ نرغب نحن في عمل الجانب الإلهي وفي أن يعمل الله الجانب البشري. يجب أن نفهم هذا جيداً وهو أن نقوم من جانبنا البشري بالصلاة والله يعمل الجانب الإلهي ألا وهو الخلاص...وفي الحق أن كلّ محاولة تقوم بها الكنيسة هي إلهية وبشريَّة معاً.

1– قيمة الصلاة

قلتُ له: إن كنتُ قد فهمتُ جيداً، فهذا يتم تحقيقه بصورة مؤكَّدة بالتنسك والصحو والصلاة إلى يسوع. لكن إسمحوا لي بسؤال، لأني أؤمن به، بل لأني أسمع دائماً إعتراضات على "هذه الصلاة التي تحمل النعمة" من أناس مختلفي المشارب في عصرنا، فهم يقولون إنّ الصلاة والطريقة التي تتم بها ليست إلا "يوغا" مسيحية مرتبطة بنماذج مماثلة في الديانات الشرقية. فماذا تقولون في هذا؟

أجاب: يبدو أنّ القائلين يجهلون تماماً الحالة النعمويَّة (الكارزماتية) في كنيستنا. فنحن نحصل على النعمة الإلهية بالصلاة وهم لم يعيشوا هذه الحالة لذلك لا يعلمون. لكن ينبغي ألاَّ يضعوا أصحاب الخبرة في موضع الإتهام. إنهم يجدّفون على الآباء القديسين فالعديد من هؤلاء الآباء جاهدوا من أجل هذا الدعاء تحدثوا عنه وعن قيمته بحرارة وقوة، فهل سقطوا في ضلال؟ وهل ضلّ القديس غريغوريوس بالاماس؟ وهم يجهلون أيضاً الكتاب المقدّس. فإنّ عبارة "يا ابن داود إرحمنا" ومعناها يا يسوع ارحمنا، قالها عميان فوجدوا النور، وقالها بُرص فطهروا من برصهم الخ..

إنّ الصلاة: ''يا ربي يسوع المسيح ابن الله إرحمني'' تتألّف من أمرين أساسيين، الأول عقائدي: إعتراف بلاهوت المسيح، والثاني توسّلي: تضرّع من أجل خلاصنا. والصلاة بكلام آخر هي اعتراف إيمان بالله–الإنسان، مرتبط بعجزنا عن الحصول على الخلاص بمفردنا. هذا ما تقوله الصلاة، وعلى هذين الأمرين يرتكز جهاد المسيحي كله: إيمان بالله–الإنسان، وشعور بسقوطنا في حالة الخطيئة. فالصلاة تُعبِّرُ بكلمات وجيزة عن محاولة المؤمن بكاملها كما إنها تلخّص عقيدة كنيستنا الأرثوذكسية كلها.

ونحصل بالصلاة على معرفة مزدوجة. يقول القديس مكسيموس المعترف: ''إنّ هوى الكبرياء يقوم على جهلين، هما جهل للقدرة الإلهية وجهل للعجز البشري. وهذا الجهل المزدوج ينشىء ذهناً مشوَّشاً. فالمتكبر إذاً هو إنسان الجهل، أما المتواضع فهو إنسان المعرفة المزدوجة، لا يعرف عجزه الذاتي وحسب بل قوة المسيح أيضاً. فبالصلاة إلى المسيح نقرّ بقوة المسيح ونعترف بها: ياربي يسوع المسيح إبن الله، ونقرّ ونعترف أيضاً بعجزنا إذ نقول: إرحمني. بهذا نحصل على حال الإتضاع المغبوط. فحيث التواضع تكون نعمة المسيح أيضاً. وهذه النعمة هي ملكوت السماوات. أترى إذاً قيمة ''الصلاة'' وكيف يمكننا بقوّتها الحصول على ملكوت الله؟

– إني أعلم أيها الشيخ أنّ هناك شرطاً ضرورياً للخُلُق الأرثوذكسي، هو أن لا نفرّق أبداً المسيح عن أقنومي الثالوث الفائق القداسة. لهذا نستدعي في القداس الإلهي، بصورة دائمة، الثالوث القدوس ونمجده في كل الطلبات مشيرين في خاتمتها إلى دواعي الطلب: ''لأنه ينبغي لك كل مجد وإكرام وسجود أيها الآب والإبن والروح القدس الآن وكل آن...''. ''نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله الآب، وشركة الروح القدس، لتكن مع جميعكم'' الخ. فهل ''الصلاة'' الموجَّهة فقط إلى الأقنوم الثاني للثالوث القدوس تنحرف عن التعليم القويم؟

– إنها لا تنحرف البتة وسأتوسّع في شرح ذلك. إنّ الصلاة تُسمى''صلاة يسوع'' لكنها تقوم على أساس ثالوثي المعنى. فمما لا ريب فيه أنّ المسيح هو ''أحد الثالوث القدوس'' فهو لا يوجد أبداً بدون الآب والروح القدس، لأنه هو والأقنومان الآخران ''ثالوث قائم في الجوهر ذاته وغير منفصل''. والخريستولوجيا (الدراسة حول المسيح) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثالوثيات (ترياذولوجيا).

ولنعدْ إلى موضوع الصلاة. إنّ الآب أمر يوسف بواسطة الملاك أن يطلق على المسيح إسم يسوع فسمَّاهُ يسوع (متى1: 21). أطاع يوسف أمر الله وأطلق على ابن البتول إسم''يسوع''. كما أنّ الروح القدس

أنار الرسول بولس فكتب يقول: ''لا يستطيع أحد أن يقول يسوع ربّ، إلاَّ بالروح القدس'' (1كو 12: 3). فبترديدنا الصلاة (ياربي يسوع المسيح، إبن الله إرحمني) نتعرّف على الآب من جديد ونُظهر له الطاعة، بالإضافة إلى أننا نحسّ بأفعال الروح القدس وشركته. والآباء القديسون قد أنارهم الروح القدس، فقالوا لنا ''إنّ الآب يفعل كل االأشياء بواسطة الإبن في الروح القدس''. فالثالوث القدوس بكامله قد خلق العالم وصنع الإنسان. والثالوث القدوس أعاد خلق الإنسان والعالم من جديد. (لقد سُرَّ الآب، والكلمة صار جسداً) و(صار جسداً من الروح القدس). أي إنّ تأنُّس المسيح قد تمَّ ''بمسرّة الآب وبمشاركة الروح القدس في الفعْل'' لهذا نقول أيضاً إنّ خلاص الإنسان والحصول على النِعَم الإلهية عمل مشترك للثالوث القدوس. وسأذكر لكم تعليمين مميَّزين علّمهما الآباء:

كتب القديس سمعان اللاهوتي الجديد، يقول إنّ ابن الله وكلمته هو باب الخلاص، حسب إعلانه ''أنا الباب، إن دخل أحد بي يخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى'' (يو 1.: 9). فإن كان المسيح هو الباب، كان الأب هو البيت ''في بيت أبي منازل كثيرة'' (يو 14: 2). فنحن ندخل إلى لدن الآب بواسطة المسيح. ولكي يُفتح الباب لا بد لنا من المفتاح. والمفتاح هو الروح القدس، لأننا بفعل الروح القدس نعرف الحق. والحق هو المسيح. إنّ الآب قد أرسل ابنه إلى العالم، وابن الله وكلمته يكشف لنا الآب. أما الروح القدس المنبثق من الآب والمرسل بواسطة الإبن فإنه يصوّر المسيح ''في قلوبنا''. وهكذا نعرف الآب بواسطة الإبن في الروح القدس''.

والقديس مكسيموس المعترف يتحدث كثيراً في كتبه عن الكلمة في تجسداته السرّية. وقد كتب يقول في أحد مؤلفاته إنه ''كما كانت أقوال الناموس والأنبياء سابقة لحضور الكلمة بالجسد، هكذا حدث حين تجسد ابن الله وكلمته فقد صار بتجسده سابقاً لحضوره الروحي..مؤدَّباً النفوس بأقوال مناسبة لقبول حضوره الإلهي المجيد''.

وبكلام آخر ينبغي أن يتجسد المسيح في داخلنا، وبدون ذلك يتعذر علينا أن نرى مجده في السماوات. غير أنّ تجسد المسيح في داخلنا يصير بمسرّة الآب ومشاركة الروح القدس في الفعل.

أرأيتم كيف يُعبَّر عن فعل الثالوث القدوس المشترك وكيف نتبيَّن السرَّ العظيم ونعترف به، وهو السر الذي أظهره الرب بتجسده؟

فمن يرفض إذاً الصلاة إلى يسوع ولا يعترف بها يرتكب خطأ كبيراً. فإنه ينكر الثالوث القدوس ويعصى الآب ولا يتقبّل إشراقات الروح القدس، وهو إذاً ليس على صلة حقيقية بالمسيح، وعليه أن يساوره الشك في أنه مسيحي أرثوذكسي.

– أتمنى أيها الشيخ أن تمدوني بمزيد من التفسير وتتوسعوا في شرح ما سألتكم عنه سابقاً، أعني ما الفرق بين الصلاة وطريقة اليوغا وأن تبيّنوا لي أفضيلة الصلاة وسموّها على الديانات الشرقية الأخرى، طالما لديكم بنوع أخصّ المزيد من الخبرة في هذا الموضوع.

– إنّ هذا الموضوع، يا بني، واسع جداً. ويمكن أن يُقال فيه الكثير. ومما قلتُه تظهر بعض النقاط.

أولاً: الصلاة تعبّر بشدة عن الإيمان بالله الذي خلق العالم ويحكمه ويحبه. فهو الأب الحنون المهتم بأن يخلّص خليقته. والخلاص يتمّ "في الله". لهذا نتوسل في الصلاة قائلين "إرحمني".

إنّ تخليص المرء نفسه بذاته، وتأليهه لذاته، هما أمران بعيدان عن المجاهد بالصلاة العقلية لأنهما كانا الخطيئة التي سقط فيها آدم. فقد أراد أن يصير إلهاً خارج الإطار الذي حدَّده الله له. والخلاص لا يتم "بواسطة الذات ومن الذات" وهو ما تقول به النظم البشرية وإنما يتمُّ في الله.

ثانياً: نحن لا نجاهد بالصلاة من أجل أن نقابل إلهاً غير شخصي، لأننا لا نبتغي الإرتفاع إلى العدم المطلق، وصلاتنا تتركز على إله شخصي هو يسوع الإله – الأنسان ولهذا نناديه بالصلاة "يا ربي يسوع المسيح، إبن الله". وتلتقي في المسيح الطبيعتان الإلهية والإنسانية، أعني الله الكلمة والإنسان بكامله (يسكن فيه كل ملء اللاهوت جسدياً). ولذلك يرتبط تعليم الرهبنة الأرثوذكسية عن الأنسان والخلاص بالتعليم عن المسيح برباط وثيق. نحن نحبّ المسيح ونحفظ وصاياه، ونعطي لهذا أهمية كبرى، ونصرّ على تنفيذ وصايا المسيح. وقد قال هو نفسه "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي" (يوحنا 14: 15) وبحبنا للمسيح وحفظنا وصاياه نتحد بالثالوث بكامله.

ثالثاً: بالصلاة العقلية المتواصلة لا نتردّى في حال الكبرياء، أما النظم التي ذكرتها لي سابقاً فتسودها الكبرياء، ولكننا نحصل بالصلاة على حال التواضع المغبوطة. وإذ نقول "إرحمني". نعتبرذاتنا أسوأ الناس أجمعين، ولا نحتقر أحداً من الإخوة. والمجاهد بالصلاة تنأى عنه كل أنواع الكبرياء. أما من عنده الكبرياء فهو أحمق.

رابعاً: ليس الخلاص فكرة مجردة -كما قلنا- وإنما هي إتحاد بالله، المثلّث الأقانيم، في شخص''ربنا يسوع المسيح''. لكنّ هذا الإتحاد لا يبطل العامل البشري. فنحن لا نفنى في الله ما دمنا نحن أيضاً أشخاصاً.

خامساً: إننا نحصل خلال مضيّنا في الصلاة على قدرة تَبَيَنُّ الضلال، فنرى ونميّز حركات الشيطان. ولكننا في الوقت عينه نميّز أفعال المسيح أيضاً، أعني أننا نعرف بوضوح روح الضلال الذي كثيراً ما يتشكّل في صورة ملاك نور. وهكذا نميّز بين الصالح والشرير، وبين غير المخلوق والمخلوق.

سادساً: إنّ الجهاد من أجل ''الصلاة'' مرتبط بتطهير النفس والجسد من تأثير الأهواء القتّال. لسنا نسعى إلى الوصول إلى التجرد من الإنفعال (الأباثيا) تقول به الفلسفة الرواقية، بل نبتغي البلوغ إلى (أباثيا) ديناميكية، أعني أننا لا نهدف إلى إماتة الإنفعال (Pathos) وإنما إلى تجلّيه (إعادة تشكيله) أو تهذيبه. فبدون الإنفعال اللا إنفعالي لا يمكن أن يحب أحد الله ولا أن يخلص. لكن بما أنّ هذه المحبة قد فسدتْ واعوجّتْ، فإننا نسعى إلى التجلّي، نجاهد من أجل تحرير صورتنا من الحالات الشاذة المشوّهة لها، والتي أحدثها الشيطان.

بدون هذا الجهاد الشخصي الذي يتم بنعمة المسيح لا يمكننا أن نخلص. يقول القديس مكسيموس المعترف ''إنّ المعرفة غير المقرونة بالعمل لهي ثيولوجيا شياطين''.

سابعاً: لا نبتغي بالصلاة قيادة العقل إلى العدو المطلق، بل توجيهه إلى القلب ونقل نعمة الله إلى داخل النفس، وامتدادها إلى الجسد أيضاً. ''إنّ ملكوت الله داخلكم '' والجسد حسب تعليم الكنيسة ليس شراً ولكنّ التفكير ذا النزعة الجسدية شر. والجسد ليس ''رداء النفس'' كما تسميه بعض النظم الفلسفية، لذلك يجب علينا أن نخلّصه لا أن نلغيه. كما أنّ الخلاص يعني خلاص الإنسان بكامله، نفساً وجسداً. ولذلك نحن لا نسعى من أجل تدمير الجسد، ولكننا نقاوم عبادة الجسد، ولا نريد هدم الحياة ولا نسعى إلى الوصول إلى عدم الرغبة في الحياة بحيث يتوقف الألم. ونمارس''الصلاة'' لأننا متعطشون إلى الحياة، ونريد أن نحيا مع الله إلى الأبد.

ثامناً: ليس لدينا عدم اكتراث بالعالم من حولنا. إنّ مختلف النظم التي ذكرتها تتجنب التفكير في مشاكل الناس ليحفظ أصحابها لأنفسهم السلام والتجرّد من الإنفعال. أما نحن فنعمل نقيض ذلك لأننا نصلي من أجل الجميع نتضرّع إلى الله من أجل العالم كلّه.

والخلاص بنوع أخصّ الإتحاد بالمسيح. لذلك نكون على صلة إجتماعية بأشخاص آخرين فنحن لا يمكن أن نخلص وحدنا، ولا يكون فرحنا فرحاً حقيقياً إن انحصر فينا ولم يكن فرحاً للعالم أيضاً.

تاسعاً: نحن لا نعير الطرق النفسية أهمية كبرى ولا نكترث لأوضاع الجسم المختلفة، ونرى أنّ في بعض هذه الطرائق وسائل تساعدنا على تركز العقل في القلب، أي في بعض جوهره. ومن بعد استخدامنا لها لهذه الغاية نتركها فوراً. وأكّرر القول، إننا لانسعى إلى التجرُّد من الإنفعال بل إلى نيل النعمة الإلهية.

قلتُ: أقدّم لك أيها الشيخ جزيل الشكر على هذه الأفكار المرشدة الموضحة، وهي على جانب كبير من الأهمية لأنها صادرة عنكم، وأنتم تعيشونها بالإختبار. لكن اسمحوا لي بسؤال: هل الصلوات الأخرى غير ملأئمة؟ أفلا تساعد هي أيضاً؟

– كل صلاة عظيمة. فهي صرخة نفس. والعون الإلهي يأتي بمقدار الإيمان وحرارة التوسّل. أكانت صلاة عبادة جماعية أم صلاة فردية الخ. أما ''صلاة يسوع'' فهي ذات قيمة كبيرة لأنها، كما قال القديس إسحق السرياني، المفتاح الصغير الذي به نستطيع الولوج إلى الأسرار''التي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تصعد إلى قلب إنسان''. فهي تجمع العقل وتزيد من ضبطه، وتدفعه إلى الصلاة بقوة أشد، لا يمكن تصورها. اعني أنها تجعله ''مجرداً من اللون، والنوعية، والشكل''. وسرعان ما تجلب له نعمة غزيرة وهي تحمل إليه المزيد من النعمة، أكثر كثيراً مما يأتي به الترتيل، لأنها وثيقة الصلة بالتواضع وبمعرفتنا بخطايانا معرفة أكيدة. هذا ما يقوله الآباء القديسون. وقد تكلّم في الموضوع عينه القديس غريغوريوس السينائي فقال: ''إنّ الترتيل هو عملياً للممارسين والمبتدئين. أما الصلاة فهي لأولئك الذين ذاقوا النعمة الإلهية أعني بهم الهدوئيين''.

''...أما أنت فلا ترتّل في أحيان كثيرة.. لأنّ في ذلك تشويشاً... فما الترتيل الكثير إلا للعمليين بسبب عدم المعرفة والتعب، وليس للهدوئيين الذين اكتفوا''في الله'' لكي يتوسلوا إليه في القلب ويبتعدوا عن الأفكار.. .ومن ذاق النعمة فليرتّل باعتدال– حسب تعليم الآباء– وما عليه إلاَّ قضاء معظم وقته في

الصلاة. أما إذا كان في الإستراحة والإسترخاء فليرتّل أو يطالع المؤلفات العملية، التي وضعها الآباء القديسون''.

وأضاف قائلاً: يحدث يا أبتِ مع الترتيل عادة حصول فوضى لا بل تتسرّب معه أيضاً الأنانية والكبرياء بسبب رخامة الصوت وحسنة، وما يفصح عنه سامعوه من انطباعات. أما إذا ردَّد الراهب ''الصلاة'' في قلايته قائلاً ''إرحمني'' فإنه يكون في منأى عن العوامل الخارجية التي تدفع إلى بروز الكبرياء. لهذا يكثر الهدوئيون ممارسة هذا النوع الذي علّمنا إيّاه آباؤنا، فيصلّون صلاة السحر وصلاة المساء، مستعملين الحبل المعقود ومردِّدين ''الصلاة''.

– لكنّ هذه الصلاة قصيرة جداً وشديدة الإنجاز. فهل يجب أن يُثَّبت العقل فيها؟

– العقل يتعلّق بالجُمل القصيرة تعلُّقاً شديداً، يفوق تعلُّقه بسواها. إلاَّ أنّ للصلاة عمقاً بعيداً الغور تتعذَّر رؤيته من الخارج. ومن صفات العقل أنه حيث يفق يتغلغل في العمق ومن هناك يقود الرغبة والمحبة. هذا ما عناه القديس مكسيموس المعترف بقوله: ''إن العقل قد اعتاد التوسّع في الأمور التي يستقر عليها زمناً، ومن هذه الأمور الرغبة والمحبة فهو يتوسّع فيهما ويوجّههما إمَّا إلى الأمور الإلهية والواجبة والعقلية، وإمَّا إلى أمور الجسد والأهواء''.

مثل هذا يحدث للمعرفة أيضاً بنوع أخصّ. فإنّ أمراً بسيطاً واحداً يبدو من أول نظرة أنّ في الإمكان وضعه موضع درس وبحث طوال سنين. فكم بالحري لو كان هذا الأمر إسم ''يسوع'' الكلي الحلاوة. فلا ريب أنّ المرء يمكن أن يواظب على درسه طوال حياته.

– طالما أنَّ لهذا الإسم قوة بهذا المقدار، فاسمحوا لي أيها الشيخ أن أسألكم: كيف يتم ذلك؟ وكيف يتسنىّ للمرء أن ينعم به؟ أعرف أني أضايقكم بأسئلتي لأنكم تدركون أنّ أمامكم إنساناً يجهل هذه الموضوعات ولا خبرة له فيها. غير أني قلت في نفسي إنكم ستساعدونني كثيراً.

– الصلاة يا بُنيَّ هي العلم الأعظم، ولا يستطيع أحد شرحها على الوجه الدقيق، ولا تحديدها تحديداً كاملاً. لأنه قد يُساء فهمه ولن يدرك قصده من ليس لديه أدنى الخبرات. والصلاة أيضاً فوزجهاد

حقيقي. ويمكنني القول إنها الصورة القصوى التي نحصل منها على الثيولوجيا (علم الإلهيات) أوبالأحرى نكتسب منها رؤية الله.

والثيولوجيا وليدة الصلاة النقية الخالصة، وهي جَنْيُها المبارك وثمرها المستطاب. أما هدوء البرّية الكلية الحلاوة فهو مناخ نموّها وعيشها بالإختبار، بكل محتواها الفعَّال. وهي أيضاً وليدة التطهّرمن الأهواء.

– لقد سبق لي، أيها الشيخ، أن قرأتُ المفعم بالنعمة، عمل الهدوء العقلي، أعني به استدعاء إسم يسوع. غير أني، بعد أن أوضحتم لي قيمته، أريد أن [أعرف] الموضوع من خبرتكم الشخصية. فإني لا أرغب في هذه المعرفة لمجرد الفضول الإستطلاع، وإنما أريد أن أعيش هذه الحال المباركة ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. وعسى ألاَّ ترفضوا هذه الرغبة.

2- مراحِلُ الصلاة

– لقد ذكرتُ فيما سبق، أنّ الصلاة العقلية تتطلَّب بصورة رئيسية رفضاً للعالم، وطاعة للشيخ، وقراراً بتصميم الراهب على البقاء في الغربة، والمحافظة على تنفيذ وصايا المسيح لمدة (زمنية) طويلة يتركّز انتباهنا في البدء على تحقيق المسيح وعلى الإهتمام بالمنجزات النسكية، وهي الإمساك والطاعة. ونعلم من آبائنا القديسين أنّ الفضائل لا توحّد الإنسان مع الله توحيداً كاملاً بل تنشىء الجوّ المناسب لذلك ثم تأتي الصلاة ويتوحّد الإنسان مع الله القدوس المثلّث الأقانيم.

والفضائل شرط سابق لا بد منه لنوال المزيد من النعمة وهي في الوقت عينه تضفي على صاحبها نعمة. فإذا تأكد الشيخ الخبير في الصلاة، أنّ مريده قد تخلى عن إرادته الذاتية وتطهَّر من أهوائه الثقيلة، قرّر أن يعلّمه سرَّ صلاة يسوع. لكنه لا يقول له كلَّ شيء فوراً، ويكتفي بما يستطيع أن يتحمّله ويحقّقه، فيرشده تدريجاً لئلا يتعرّض المريد لحال من اليأس أو الضلال وهو أمر يتحمل حدوثه أحياناً.

– ما هذه المراحل وما هي درجات المراقي السرّية التي تؤدي إلى الإتحاد الكامل بالمسيح، بالنعمة المؤلّهة؟

– إنّ غاية الصلاة الأساسية هي توحيد الإنسان المتفتّت تفتّت الفخار.

– إسمحوا لي أن أستوقفكم لأسأل ما معنى توحيد الإنسان؟

– إنّ الإنسان بحسب صيغة الكتاب المقدّس مخلوق على صورة الله، والله مثلّث الأقانيم ولكنه جوهر واحد (الآب والابن والروح القدس). والنفس هي أيضاً كذلك لأنها على صورة الله، فهي موحَّدة وفي الوقت عينه متعدّدة القوى وقواها ثلاث: العقل والشهوة والإرادة. وينبغي أن تكون هذه القوى الثلاث في وحدة وأن تتجه صوب الله. ويقوم التطوّر الطبيعي لهذه القوىالثلاث حسب قول القديس مكسيموس على مايلي: أن يعرف العقل الله وأن تشتهي شهوة المرء الله وتحبه وحده دون سواه. أما الإرادة فينبغي أن تفعل مشيئة الرب. بهذا تطبّق الوصية ''أن تحبّ الرب إلهك من كل قلبك...ومن كل عقلك...ومن كل قوتك...''.

فإن بقي العقل عند الله أثار الشهوة لكي تحبَّه تعالى، وحفَّز الوجدان إلى الجهاد ضدّ الأرواح الشريرة وجدَّ مبتغياً التطهّر. وتبقى الوحدة قائمة ما دام الإنسان متجهاً صوب الله.

أما الخطيئة فإنها تحطّم وحدة قوى النفس الثلاث. وفي هذه الحال –حال السقوط في الخطيئة– ينتهي العقل إلى عدم معرفة الله وتتجه الشهوة إلى حب المخلوقات لا إلى حب الخالق وتقع الإرادة تحت طغيان الأهواء، وبذلك يتم استعباد النفس استعباداً كاملاً. ولقد أجاد القديس غريغوريوس بالماس في وصف هذه الحال فقال:

أولاً، إنّ عقل الإنسان ينأى عن الله ويتجه صوب المخلوقات. ''فإن فتحنا للأهواء باباً، يتشتّت العقل فوراً، تائهاً كلَّ ساعة حول الأمور الجسدية والأرضية وحول الملذات المتنوعة الأشكال، وما يدور فيها من هواجس مضطربة''.

ثانياً: إنّ العقل النائي عن الله يجرف الشهوة بعيداً عن الله وعن وصاياه ''فإذا تشتّت (العقل) انتشرت (الشهوة) في الزنى والحماقة، متقاسمة ما في كل منهما من شرور... ومتى ضعف العقل، تضاءلتْ قدرة النفس على الحب الحقيقي، فتسقط من اشتهاء ما يجب اشتهاؤه وتلتصق بمختلف الميول المندفعة إلى طلب التمتع باللذة فتتوزّع ما بين اشتهاء أطعمة غير ضرورية واشتهاء أجسام غير شريفة ثم تتجه طوراً إلى اشتهاء أشياء غير نافعة وتنجذب تارةً إلى الرغبة في مجد باطل لا مجد فيه''.

ثالثاً: تُستعبَد الإرادة للأهواء وترزح تحت طغيانها. أعني أنها تتوحش ''فلا يُمسي المرء، ذاك الذي رُتّب له أن يكون بين أبناء الله، شبيهاً بالحيوانات البهم غير العاقلة وحسب، بل يكون أشبه بالزواحف السلمة أيضاً كالعقرب والأفعى وليدة الأفاعي''.

بهذا إذا تبتعد قوى الإنسان الثلاث عن الله فتفقد الوحدة القائمة في ما بينها. والملاحظ أنّ الشهوة إذا أرادت العودة إلى الله منعتها الإرادة. وإن أرادت الشهوة العودة إليه تعالى رغب العقل عن حب الله وذلك بسبب جحوده وإلحاده.

إننا نبتغي هذه العودة وننجح في تحقيقها نهائياً بواسطة الصلاة وابتغاء العودة يبدأ بانصراف العقل إلى تجميع قواه. أما التحقيق فيتمّ بانفصاله عما حوله وعودته إلى ذاته. وبعد ذلك مباشرة يقوم بإعادة الشهوة.

– إني أعتقد أنكم شرحتم الموضوع بأجلى بيان ففهمتُه.

– ليست أنا يا بنيّ بل الآباء هم الذين شرحوه.

– بعد المقاطعة وما تلاها من الشرح أرجو أن تذكروه لي بتحليل أدق مراحل الصلاة، ومن أين يبدأ المرء، وكيف يجب أن يتقدّم فيها؟

– هناك خمس مراحل رئيسة بنوع أخصّ.الأولى: صلاة يسوع بالفم. ونكرّرها بشفتينا ونسعى في الوقت عينه إلى تركيز انتباهنا على كلماتها.

ثانياً: يباشر العقل ''الصلاة''، بعد ذلك، ويردّدها ذهنياً ومن هنا عُرفتْ بالصلاة العقلية. وينصبّ كل انتباهنا على الكلمات من جديد، لكنها تكون قد تجمّعت في العقل. وحين يتعب العقل نشرع مجدّداً في همس ''الصلاة'' بالشفتين.

وهذه الطريقة –إضافة إلى استعمال الحبل المعقود– هي بمثابة الدرس الأول للصلاة. فمن هناك يجب البدء. ولكن متى جاء دور الأكمل بَطُل الأقلّ كمالاً هناك.

ثالثاً: تنحدر ''الصلاة'' بعد ذلك إلى القلب فيتّحد العقل والقلب ويترابطان. أما الإنتباه فيكون في القلب حيث يتعمّق من جديد في كلمات ''الصلاة''، وبنوع أخصّ في إسم يسوع البعيد الغور... الذي تتعذّررؤيته.

رابعاً: تصير الصلاة في هذه الحال فاعلة بذاتها. فهي تستمرُّ بينما المرتاض (الناسك) يعمل أو يأكل أو يتحادث أو يوجد في الكنيسة أو حتى إبّان نومه، كما جاء في الكتاب المقدّس: أنا أهجع وقلبي ساهر''.

خامساً: يشعر المرء بعد ذلك بشعلة إلهية لطيفة داخل نفسه، فتشعلها وتفرحها لأنّ نعمة المسيح تحلّ في نفسه، ويسكن فيه الثالوث القدوس.

يقول القديس باسيليوس الكبير''هذه هي سكنى الله وهي أن يحظى المرء بالله مقيماً في ذاته بواسطة الذّكر. هكذا نصير هيكلاً لله عندما لا يتقَّطع الذكر المتواصل بالإهتمامات الدنيوية أو يضطرب العقل بالأهواء المفاجئة غير المنتظرة. وعلى محبّ الله حين يتجنَّب هذه الأمور كلّها أن يسير نحو الله، طارداً الأهواء التي تدعوها إلى الإنحراف وعدم الإنضباط وأن يمارس الأعمال المؤدية إلى الفضيلة ''. فيشعُر في داخله بالحضور الإلهي، وتمتدّ هذه النعمة إلى الجسد الذي يُمات ويُصلب حسب العالم. هذه المرحلة النهائية تصاحبها أحياناً مشَاهَدَة النور غير المخلوق. وهذه هي مسيرة تطوّر ''الصلاة'' تقريباً ولكلّ نعمة مناسبة.

– إسمحوا لي أيها الشيخ ببعض الأسئلة التي نشأت إبَّان تحدّثكم عن مراحل الصلاة. ماذا تعنون بكلمة قلب؟

– القلب بحسب تعليم الآباء هو مركز العالم الروحي. ومن بين الآراء الآبائية الكثيرة في هذا الموضوع أذكر رأي القديس إبيفانيوس أسقف قسطنطية في قبرص. فقد قال: ''يجب ألاَّ يزعم أحد أو يحدّد أيَّ جزء يتمُّ فيه ملءُ ما هو بحسب الصورة... إنما ينبغي أن نعترف أنّ ما هو بحسب الصورة قائم في الإنسان، ولكن لا نرفض النعمة الإلهية ونفقد إيماننا بالله. فإنّ كل ما يقوله الله حق ولو نأى كلامه قليلاً عن فهمنا''. والنفس يعبّر عنها الوجود البشري كله ومثلها مثل الشعاع، فإذا سقط على مرآة شفافة إنتشر وتجلّى في كل الإتجاهات. إلاَّ أننا نركّز انتباهنا إبَّان ''الصلاة'' على القلب كعضو جسدي فنعزله

عن الأشياء الخارجية ونعيده إلى داخلنا، إلى القلب العميق. وبهذه العودة يرجع العقل، أحد قوى النفس، إلى سكنه حيث يتّحد مع القوى الأخرى للنفس''.

– لي سؤال ثانٍ: هل يتبع هذه السيرة التي شرحتموها جميع الذين لهم التنعُّم بالله؟

– ...أكثرهم يفعلون ولكن ثمة من يحاولون –وحتى منذ البدء– أن يوحّدوا العقل والقلب. وهم يتوسلون إلى ذلك طريق الشهيق والزفير، فيشهقون عند ترديد الكلمات''يا ربي يسوع المسيح '' ثم يزفرون على كلمة ''إرحمني'' ويراقبون الهواء أيضاً حين يدخل بطريق الأنف إلى القلب، وهناك يتوقفون قليلاً.

ولا ريب أنَّهُم يفعلون هذا على وجه التدقيق، لكي يتركزانتباه العقل (بعيداً عن التشتت). وقد سلَّمَنا الآباء أيضاً طريقة أخرى هي أن نشهق عند قولنا''الصلاة'' بكاملها ونزفر فيما نقولها بكاملها. وتمارَس هذه الطريقة عند المتقدمين في هذه الرياضة. إلاَّ أنَّ هذه الطريقة بواسطة التنفس قد تحدث صعوبات كثيرة ومشاكل جّمة، ولذلك يجب تجنّب ممارستها إلا بإشراف الشيخ وتوجيهه. ويمكن استعمالها لمجرد تركيز الذهن على كلمات ''الصلاة'' فقط، لكي لا يتشتَّت، وأكرّر القول، إنّ هذا يتطلّب بركة خاصة من شيخ يتحلى بفضيلة التمييز.

– قلتم سابقاً، أيها الشيخ، إنّ غاية''الصلاة'' هي إعادة العقل إلى القلب، إي إعادة الفعل إلى الجوهر. يمكننا أن نعيشها بنوع أخصّ في المرحلة الثالثة من هذه المسيرة الشريفة. لكنّكم عند شرحكم المرحلة الخامسة ذكرتم قولاً للقديس باسيليوس الكبير جاء فيه ''وعلى محبّ الله – حين يتجنَّب هذه كلها – أن يسير نحو الله..''. فكيف يأتي العقل إلى القلب وينطلق نحو الله؟ وهل في هذا تناقض؟

أجاب الناسك قائلاً: كلا، ليس فيه تناقض. يعلّم الآباء القديسون المتوشّحون بالله أنّ هناك مراحل(أي مقامات) مختلفة للمصلّين. فهناك المبتدئين والمتقدّمون، وبتعبير أفضل يستعمله التعليم الآبائي هناك العمليون والنظريون. فعند العمليين تنشأ الصلاة عن خوف من الله وعن الرجاء الصالح. أما عند النظريين فتنشأ عن عشق إلهي وعن تطهُّر يبلغ الحد الأقصى.

وتتميّز الدرجة الأولى، أي درجة العمليين بتركّز العقل في القلب، ومنه يقوم العقل بالصلاة إلى الله بدون انقطاع. أما الدرجة الثانية للصلاة أي درجة النظريين فتتميّز باختطاف النور الإلهي للعقل فينعدم إحساسه بأي شيء من العالم ويفقد أيضاً شعوره بذاته. وهذا هو انجذاب العقل. وفي هذه الحال نقول

إنّ العقل مُنطِلق إلى الله. والآباء المتوشّحون بالله، الذين عاشوا هذه الأحوال المباركة وصفوا هذا الجذب الإلهي. قال القديس مكسيموس المعترف ''إنّ هو انخطاف العقل بالنور الإلهي غير المحدود، فلا يشعر بذاته، ولا بأي كائن آخر من الكائنات جميعها ما خلا إحساسه بمن تصدر عنه هذه الإنارة بالمحبة''.

– إسمحوا لي بسؤال آخر. إني لم أفهم معنى الآية التي ذكرتم ''أنا أنام ولكنّ قلبي ساهراً'' إنفحوني عطفكم بشرح هذه الآية. كيف ينام ويظل قلبه مصلياً لله في الوقت عينه؟

– إنّ هذه الآية قد وردت في سفر نشيد الأناشيد في العهد القديم، وليس شرحها عسيراً. لقد ذكر النبي داود في سفر المزامير إنّ قلب الإنسان عميق، وكل أحداث النهار وانطباعاته ومشاغل العقل تنطلق إلى أعماق القلب، إلى ما ''تحت الشعور'' كما نقول اليوم. فما يشغل الإنسان في النهار عادة يشغل قلبه أثناء الليل أيضاً، حين يهدأ العقل وتستريح قوى الإنسان. وهذا واضح في الأحلام التي نشاهدها. يقول القديس باسيليوس الكبير ''إنّ التخيّلات خلال النوم ما هي في الغالب إلاّ صدى لأفكار النهار'' وهو يعني بذلك أنّ معظم التخيّلات ''الأحلام'' أثناء النوم هي صدى الفكر اليومي. والمشاغل الشريرة والأفكار الشريرة في النهار تنشىء الأحلام الشريرة. يحدث هذا الأمر كذلك في الأعمال الصالحة. فممارس الرياضة ''الروحية'' وإنسان الله إجمالاً، يشغل فكره في الصلاة إلى الله طوال النهار، وذِكْرُ الله مع تكرار الصلاة لذّته وشغلُه الشاغل، وكذلك الأمر في أعماله الأخرى سواء أكل أم شرب. فهو يعملها كلها لمجد الله وفقاً لقول الرسول. فمن الطبيعي أن يفكّر قلبه بالله وأن يصلي إليه تعالى أثناء ساعات راحته الليلية القليلة. إنه يسهر...

3– طرق ((الصلاة))

أشكركم شكراً جزيلاً، أيها الشيخ، على هذه الشروح المسهبة. فقد استطعتُ حتى الآن أن أتتبّعكم إلى حدّ ما، وتمكنتُ من إدراك مقامات ''الصلاة''، أعني كيفية تطور هذا العمل الشريف. ولكن أريد أن أسأل: هل يتمّ العمل من غير جهد؟ أفلا يحتاج إلى جهاد وقهر؟ وإذا كان ملكوت الله يغتصب والغاصبون يختطفونه (متى 11: 12) أفلا ينبغي أن يكون في ''الصلاة'' اغتصاب أيضاً، طالما أنّ المرء يذوق بها ملكوت الله؟ لأنّ مشاهدة النور غير المخلوق هي ملكوت السماوات، وقد قرأتُ ذلك في مؤلف للقديس غريغوريوس بالاماس. فأين يكون الجهاد إذاً؟

– قال الشيخ الحكيم (ساكن الجبل المقدّس): لا ريب أنّ الحاجة توجب الجهاد، ولا بد للمجاهد من بذل دم غزير. وهنا يصدق، بنوع خاص، القول الآبائي ''أعطِ دماً وخذ روحاً'' فإن آدم نفسه بدون الجهاد قد خسر الفردوس، مع أنه كان في مجال مشاهدة الله. فكم بالأحرى يكون جهادنا ضرورياً، لكي نحوز النعمة الإلهية. يخطئ الذين يقولون بعدم ضرورة الجهاد. قال القديس مكسيموس المعترف ''إنّ المعرفة بدون العمل هي ثيولوجيا شياطين''. كانت الصلاة قبل السقوط تجري بلا كدّ، شأنها شأن تمجيد الملائكة الذي لا يهدأ. لكنها بعد السقوط تتطلّب كداً وجهاداً. أما الصدّيقون في ملكوت الله فسيعودون إلى الحال التي كانت قبل السقوط.

– أتمنى لو تشرحون لي هذا الجهاد.

– إنّ الجهاد الأول والأكبر هو قيام المرء بتجميع عقله وفصله عما يربطه بما حوله من أشياء وأحوال وحوادث وأفكار شريرة، لأنّ العقل إذا نأى عن الله مات. فهو كالسمكة إذا خرجت من البحر ومن الماء. قال القديس اسحق السرياني ''ما يحدث للسمكة إذا خرجت من البحر، يحدث للعقل إذا نكر الله وانغمس في ذكر العالم''. والعقل بعد السقوط أشبه بكلب سريع الحركة في الهرب ويريد الركض على الدوام. فهو كالابن الشاطر الذي ذكر المثل أنه أراد مغادرة منزل أبيه فأخذ معه ثروته (= الشهوة – الإرادة) ثم بدَّدها وأنفقها عائشاً في الضلال. وهذا ما قاله الآباء الذين عاشوا الحياة الروحية العميقة وبخاصة القديس غريغوريوس بالاماس.

قلت: إنها فكرة حسنة! ولكن كيف يتجمّع العقل؟

– كما حدث للابن الشاطر تماماً. يقول المثل: ''فرجع إلى نفسه وقال: كم من أجير لأبي يفضُل عنه الخبز، أما أنا فأهلك جوعاً. أقوم وأذهب إلى أبي... وقام وجاء إلى أبيه.. وقال الأب لعبيده... قدّموا العجل المسمَّن واذبحوه فنأكل ونفرح. لأنّ ابني هذا كان ميتاً فعاش، وضالاً فوُجد. فابتدأوا يفرحون'' (لوقا 15: 17-24).

والعقل الضال أيضاً يحتاج إلى العودة إلى ذاته من تشتّت. فإذا عاوده الشعور بحلاوة بيت أبيه وبالسعادة التي تغمره ورغب في العودة إليه يكون الاحتفال بقدومه عظيماً، فيفرح فرحاً عميقاً، ويُسمَع حينذاك صوت يقول ''إنّ ابني كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد'' ويُعطى العقل المائت حياة. ومتى جاء العقل

إلى القلب فحينئذٍ فقط يصير الفرح، كما يحدث عند عودة المغترب إلى بيته. وفي هذا يقول نيكيفورس المتوحّد ''كما أنّ الرجل المغترب إذا عاد إلى بيته، فرح لم يكن له، لأنه استحق الاجتماع بأولاده وامرأته، هكذا يحدث للعقل أيضاً، فإنه حين يتّحد بالنفس يفعم بلذة وبهجة يتعذر وصفها''. وتجميع العقل يتمُّ بتأجيج القلب قبلاً. إنّ شيخي الدائم الذكر، كان يجلس قليلاً عند غروب الشمس فيستعرض صوراً من حاله الداخلية ومن الطبيعية، ثم يشرع في تلاوة ''الصلاة'' -بعد أن يكون قلبه قد تأجج- ويستمر في ترداده حتى ساعات السحر، موعد خدمة القداس الإلهي. حينذاك...

- أيها الشيخ أعذروني لقطع حديثكم. إني لم أستطع متابعة كلامكم جيداً. ماذا تعنون بتأجيج القلب. كيف يتم تأجيجه وما حاجة ''الصلاة'' إليه؟

- سيساعدك مثل الإبن الشاطر: فقط ''عاد إلى نفسه وقال: كم أجير لأبي يفضل عند الخبز، وأنا أموت جوعاً. أقوم وأذهب إلى أبي...'' أعني أنه فكّر في سعادة بيت أبيه، وفي شقائه هو أيضاً. فتحرّك فوراً للعودة إلى أبيه. لقد قام بمحاولة مضنية ليرغم إرادته ورغبته على اتخاذ قرار بالعودة... وهذا ما نفعله في ''الصلاة''، فنحاول التأكد من أننا نعيش في حال الخطيئة، حال شقائنا. إننا نرى انحرافاتنا اليومية فنفحص مختلف الحوادث والخطايا، لكّن هذا يتمّ من الناحية الخارجية فقط، ونشعر كأننا في محكمة حيث تجري محاكمتنا، وأنّ الله جالس على كرسي القضاء ونحن على مقعد المتَّهم. ومتى شعرنا بهذا يبدأ صراخنا ''ارحمني''. وفي هذه الحال يجب أن نبكي لأنّ الصلاة الخالصة القويمة تصدر عن البكاء.

يقول الآباء: إن أراد أحد أن يكتسب صلاة عميقة وحياة رهبانية صادقة يجب أن يعرف كيف يبكي وكيف يعيش شعور من يتّهم ذاته وبكل قوة، وأن يعتبر نفسه أسوأ من الآخرين، وأنه حيوان قذر يحيا في دياميس الضلال ودياجير الجهل، وأن يتحلى بنعمة المتّهم نفسه أوَّلاً. كما يقول باسيليوس ''... أن يتّهم ذاته بالآثام غير منتظر اتهام الآخرين له لكي يصير تبدّل المتّهم الأول لنفسه''.. وباتهامه لذاته أولاً كما في أمثال سليمان، يستعدّ للصلاة. قال القديس اسحق السرياني: إننا قبل الصلاة نجثو على ركبنا ونرجع أيدينا إلى الوراء ونعتبر ذاتنا مذنبة فيسيطر علينا حينذاك هاجس توبيخ الذات، ويكون في كل مرة جديداً. علينا أن نتوقّف أمامه لكي نتأمله بدون تخيّل. عندها ينزل العقل إلى القلب تائباً، ونشرع في البكاء ونصلي صلاة ثابتة واعية وبلا انحراف. سأستعمل هنا مثلاً من الحياة العالمية. ما يكاد أحد الدنيويين يتذكّر فكرة إهانته أحد الأشخاص حتى يفكّر فيها ويشعر بانقباض في قلبه ويشرع فوراً

بالبكاء. ويحدث هذا أيضاً لمن يمارس الصلاة مع الفارق بأنّ مثل هذه الأفكار العالَّمية ذات الدوافع الأنانية لا تأسره وإنما يفكر في نفسه قائلاً لقد أحزنتُ المسيح ونأيتُ عن النعمة الإلهية الخ.. وقد ينجرح قلبه في أعماقه بسبب هذا الإحساس. وإذا ما جرح القلب شعورٌ بالتوبة –وليس بضغط خارجي– فإنه ينجرح ويتألم أكثر من أيّ ألم آخر ينجم عن جرح في بدنه. وهذا الجرح في القلب يضبط العقل ويربطه بالله بصورة دائمة، و''المجروح'' لا يطيق النوم حتى في الليل لأنه يشعر وكأنه قائم فوق جمر متّقد. وقد يقوم على أثر هذا بالصلاة بقوة لمدة ربع ساعة. أما قلبه المجروح فيظل ليل نهار يذكر يسوع وهذا ما ندعوه بالصلاة المتواصلة بلا انقطاع. أكّرر القول إنه يستطيع تحقيق هذا لبضع دقائق بصلاة قوية مقرونة بدموع، فيشعر بفعل ''الصلاة'' في داخله طوال أيام.

ويجب أن أنبّه إلى أنّ شعورنا بعدم استحقاقنا شرط لازم لنوال فعل''الصلاة''. ويتوقّف التقدّم الأكبر على ازدياد وعينا لحالتنا الخاطئة. فلا صلاة حقة بدون هذا الوعي. ويجب والحال هذه أن تُقرَن الصلاة بالحزن. والآباء في الواقع يعلمون أنّ الصعود إلى السماء مرتبط بالهبوط إلى ذواتنا. فكلما زدنا تركيز انتباهنا على أعماق ذواتنا زاد اكتشافنا لخفاياها. وبالتوبة ينزل ملكوت الله إلى القلب فيتحوّل إلى فردوس، وإلى سماء قلبيَّة. ودعوة الرب''توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات'' ما تزال حيّة ونافذة في كل حين. وبالتوبة وحدها نهتدي إلى الملكوت.

– أفلا توجد حالة ما، يكاد المرء يشعر فيها بأنه متردّ في الخطيئة حتى يتولاّه إحساس بالخيبة فيترك الجهاد؟

– توجد بلا ريب حالة كهذه. فلو حدثتْ لدلَّتْ على أنّ الشيطان هو الذي دسّ للإنسان فكرة كونه في حال خطيئة، لكي يقوده إلى شهور باليأس وخيبة الرجاء. أما إذا عدنا إلى الله والتمسنا بالصلاة نعمته الإلهية على أثر شعورنا بحال الخطيئة، فإنّ اتجاهنا هذا يكون عطية الله، وفعل نعمة المسيح.

واستأنف الشيخ كلامه فقال: وهناك إلى جانب الشعور بالخطيئة طرق أخرى يُؤجَّج بها القلب. فمنها ذكر الموت إذ يفكر المرء قائلاً: ''إني أعيش ساعاتي الأخيرة، وبعد قليل يأتي الأبالسة ليأخذوا نفسي...فإذا جالت هذه الفكرة في الذهن بدون تخيّل، أثارت الورع ودفعتْ إلى الصلاة.

وردتْ في كتاب الشيوخ نصيحة للأنبا ثيوفيلوس تدلّنا كيف يمكننا أن نفكر وقد جاء فيها: ‘‘أيّ خوف ذعر وقهر يتملّكنا حين تنفصل النفس عن الجسد؟ فإنّ القوات المعادية تأتي إلينا حينذاك بكامل جحافلها،... رؤساء الظلام، أسياد عالم الشر، السلاطين والسيادات وأرواح الخطيئة، يقبضون على النفس وكأنهم يعاقبونها مظهرين لها كل ما ارتكبت من خطايا، بمعرفة أو بجهل، منذ صباها حتى عمرها الحاضر. وستُتَّهم بكل معاصيها. فيا له من هول يستولي على النفس في تلك الساعة إلى أن يصدر الحكم وتتحرَّر. هذه هي ساعة قهرها، إلى أن ترى ما ستؤول إليه.

إلاّ أنّ القوات الإلهية ستقف هي أيضاً في مواجهة القوات المعادية وستظهر الأعمال الصالحة، وتدرك النفس وهي واقفة في الوسط ما يشوبها من ذعر وخوف، إلى أن يصدر القاضي العادل حكمه. فإن كانت مستحقة عوقب الأبالسة واختُطفتْ منهم. وتصبح من ذلك الحين بلا همّ وبالأحرى تسكن وفقاً لما ورد في الكتاب. ‘‘إنّ السكنى فيك هي لجميع المبتهجين’’. وسيتم المكتوب ‘‘يزول الوجع والحزن والتنهُّد’’ (إشعياء35: 1.) فتتحرّر النفس وتسير نحو ذلك الفرح والمجد اللذين يتعذر وصفهما، وهناك تستقر.

أما إذا كانت قد عاشت في التواني فإنها تسمع الأقوال الرهيبة ‘‘ليُرفع الشرير، لكي لا يرى مجد الرب’’، فيستولي عليها فجأة يوم غضب، يوم ضيق وقهر، يوم ظلمة وضباب وتُسلَّم إلى الظلمة البرّانية، ويُحكم عليها بالنار الأبدية فتتعذب إلى دهور لا حصر لها. وحينذاك: أين فخر الحرب؟ أين المجد الفارغ؟ أين الارتياح واللذة؟ أين الحياة المبهرجة؟ أين الراحة، وأين الكبرياء؟ أين المال؟ وأين التمايز الاجتماعي؟ أين الأب؟ أين الأم؟ أين الأخ؟ من يستطيع أن يخرجها فيما النار تحرقها وهي ترزح في العذاب الشديد؟’’.

إلا أنّ هناك أيضاً أفكاراً أخرى مناسبة، هي شعور النفس بحلاوة الفردوس ومجد القديسين ومحبة الله، لا سيما إذا كان الإنسان قد حضر القداس الإلهي في ذلك اليوم واشترك في جسد الربّ ودمه الطاهرين.

– أيها الشيخ إن سمع العالم مثل هذه الأفكار يشك فيها ولا يصدّقها. وهناك العديد من اللاهوتيين، والروحانيين أيضاً، يعارضون هذه النقاط فيزعمون أنها ليست مناسبة للناس في العالم ويدعمون زعمَهم بنوع أخصّ بالآباء القديسين. وهم يقسمونهم إلى آباء صحويين وآباء اجتماعيين، ويبرزون للعالم الآباء الاجتماعيين لأنّ تعليمهم – كما يزعمون– أكثر التصاقاً بالأرض، أما تعليم الآباء الصحويين، فإنه يصلح للأديرة. ولست أدري ما نصيب هذه الآراء من الصحَّة.

– إنكم تطرقون موضوعاً كبيراً، متعدّد الجوانب واسعاً ويتطلب زمناً طويلاً. إلاّ أني لا أمتنع عن تقديم بعض الأجوبة العامة. وأول ما أنبه إليه هو أنه لا يمكن تقسيم الآباء إلى آباء صحو أو صوفيين، وإلى آباء اجتماعيين. كما أنه لا يمكن تقسيم علم اللاهوت إلى صوفي وغير صوفي أو تقسيم الحياة الروحية إلى علمانية ورهبانية أي القول بأنّ بعض التعاليم مخصّصة للعالم، وأخرى مخصصة للراهب. إنّ ثيولوجيا الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ذات طابع سرّيّ، والحياة الروحية كلها تقشّفية وللآباء القديسين جميعاً معتقد مشترك وحياة مشتركة، وتعليم مشترك، وقد حصلوا جميعاً على الحال المغبوطة، حال التأله ،إذ صاروا أحياء في المسيح والمسيح يحيا فيهم، وفي داخلهم يعمل الروح القدس. ولهذا فإنّ الآباء الصحويين هم دائماً وفي الوقت عينه آباء اجتماعيون أيضاً كما أنَّ الآباء الاجتماعيين هم دائماً وفي الوقت عينه آباء صحويون. أعني أنّ اجتماعية الآباء ما هي إلا فيض من صحو الآباء. من اهتم منهم بالموضوعات الاجتماعية ليس عالماً اجتماعياً أو عالماً نفسياً أو عالماً أخلاق أو مربيّاً وحسب بل إنه عالم لاهوتي أيضاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وهؤلاء الآباء يعيشون، هم أوّلاً، الله اختيارياً ثم يحاولون أن يساعدوا الإنسان لكي يعيش الله أيضاً. فاجتماعية الآباء بناء على ما سبق ليست سوى بعد من أبعاد الثيولوجيا، أي أبعاد الحياة في المسيح ''التي هي في الوقت عينه حياة في الروح القدس وحياة في الكنيسة أيضاً''. فالكنيسة، في الواقع، هي حيّز الثيولوجيا الأرثوذكسية، والثيولوجيا هي صوت الكنيسة. ولجميع الآباء نقاط مشتركة، أعني أنّ الثيولوجيا التي انتهجوها كانت أرثوذكسية، وكذلك المعتقد الكنسي، والحياة الكهنوتية والرهبانية معاشة عندهم، فمن الخطأ تقسيمهم إلى آباء صحويين وإلى آباء اجتماعيين لأنّ فصلهم على هذا النحو ذو نتائج وبيلة في الحياة الروحية وينتهي إلى التجديف على الروح القدس.

– ألا تظنون أنّ بعض الآباء، كالقديس باسيليوس الكبير أو القديس يوحنا الذهبي الفم، اللذين تكلّما كثيراً على مسائل اجتماعية كانوا أقرب إلى الشعب؟

– بكل تأكيد. لكني أرى –كما قلت سابقاً– ضرورة بعض التوضيحات. فأولاً، إنّ هذا لا يعني أنّ هؤلاء الآباء لم يعيشوا بالدموع والصحو والصلاة، أعني أنه يجب أن لا نفصل تعليمهم الاجتماعي عن حياتهم الداخلية. يجب ألاَّ يُفكَّك الأب القديس وإلاَّ فإنه قد يُعتبر عالماً اجتماعياً أو عالم أخلاق وحسب. والفرق شاسع بين العالم الاجتماعي والبيولوجي لأنّ كلاً منهما ينطلق من دوافع وأسس مختلفة، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) تختلف كثيراً عند كل منهما.

ثانياً– إذا كان بعض الآباء القديسين قد تكلّم على المسائل الاجتماعية أكثر من سواه فما ذلك إلاَّ لأنهم تلقوا من الله إعلاناً بأنهم يجب أن يتكلّموا مع إنسان معيَّن. ويجب ألاَّ ننسى أنّ كلام النبي أو كلام الرسول أو كلام القديس يقال للشعب الموجَّة إليه حسب درجة نضجه وروحانيته. فإن بدا في كلام أحد الآباء نقص، فهذا لا يعود إلى نقص في مجابهة الأب للموضوع وعجز في عقليته، بل إلى عجز العالم عن فهم شيء ذي مستوى أعلى فالأب القديس لا يجهل الكلام على مستوى عالٍ لكنه يتقيّد بقدرة الرعيّة على الاستيعاب. كما أنّ الروح الهدوئية تتجلى في كثير من المؤلفات الاجتماعية التي كتبها الآباء القديسون. وللمزيد من الإيضاح نأخذ حال القديس يوحنا الذهبي الفم الذي ذكرته. فإنّ هذا الأب القديس كاتب اجتماعي، وكتبه صالحة لأن يقرأها الناس في العالم. ويذكر كثيرون تعليمه في مختلف الموضوعات الاجتماعية والأخلاقية، لكنهم ينسون أنه هو نفسه قد عاش الهدوئية والتنسك بالصحو والدموع والحزن والصلاة المتواصلة وذكر الموت الخ... وإذا قرأ أحد الرهبان الهدوئيين كتبه أدرك فوراً أنه أب هدوئي.

سأذكر لكم فقرة من تعليمه ثم أحاول إبداء بعض الملاحظات. فهو يتحدّث عن ''صلاة يسوع'' (وعن الصلاة بوجه أعم) وعن قيمتها فيقول: ''يجب أن تمارس ''الصلاة'' بعقل مركّز، غير مشتّت، وبقلب مجروح بشعور التوبة، لكي يكون مثمراً. ''إنّ ''الصلاة'' سلاح عظيم وكنز لا ينقص، وثروة لا تُستنفد أبداً وميناء غير متموّج، وشرط صفاء وأصل خيرات لا تحصى. وهي أقوى من الملك نفسه... وإذ أقول''الصلاة'' فلا أقصد صلاة هزيلة مفعمة بالتواني، بل أعني صلاة ممتدّة بنفس متوجعة، وعقل متوتّر. فهذه هي ''الصلاة'' الصاعدة نحو السماء. فلنزكيَنَّ إذاً حرارة الوجدان ولنحزنَنَّ النفس بذكر الخطايا. لنحزنَنَّها، لا لكي نضايقها بل لكي نعدَّها لكي يستجاب لها، ونجعلها تصحو وتستيقظ وبالصحو واليقظة نجعلها تلمس السماوات...فما من شيء يطرد التواني وعدم الاكتراث كالألم والحزن، لأنهما يجمعان العقل من كل مكان، ويعيدانه إلى ذاته. فإنّ المتضايق المصلّي على هذا النحو يستطيع بعد''الصلاة'' أن يجلب إلى نفسه المزيد من اللذة فتستقر فيها''. وهو يضيف قائلاً ''إن أقنع المرء نفسه أنه أسوأ الناس أجمعين يحصل فوراً على دالَّة في الصلاة''.

واستأنف الشيخ قائلاً، بهذه الطريقة عينها: يا أبتِ، كان يمكن أن يتكلّم كبير الهدوئيين. ونستطيع هنا أن نلاحظ بعض النقاط:

أولاً– إنّ القديس يوحنا الذهبي الفم يربط الصلاة بالنفس المتألمة والعقل المتوتر(اليقظ) ولا بد أن يعود العقل من تشتّته إلى ذاته لكي تتم الصلاة المتكاملة.

ثانياً– من الضرورة بمكان لكي يكون للصلاة فعالية ذات نتائج ناجعة أن يؤجّج القلب قبل الصلاة وهو ما تحدثنا عنه آنفاً. فإنّ القلب يتأجج والعقل يعود، وبذلك تكون الصلاة منتجة.

ثالثاً– يؤجّج القلب بتذكّر الخطايا، وبتوبيخ الذات، والشعور بأننا أسوأ الناس، ''أحط من كل خليقة''.

فإن عشنا هذه الصلاة وفقاً لهذا النهج فقط، نستطيع الحصول على اللذة الروحية، نعمة المسيح. أرأيتم الأب الهدوئي؟

– لقد أدهشتني قراءة هذه الفقرة من أقوال القديس يوحنا الذهبي الفم وتحليلكم لها وقد ترك رأي الأب القديس في نفسي أثراً طيباً.

– أتسمح لي بتصحيح؟

– بالتأكيد.

– ليس هذا رأياً شخصياً للقديس يوحنا الذهبي الفم، وإنما هو تعليم الكنيسة. فنحن لا نستطيع أن نتحدّث عن آراء للآباء القديسين، وكأننا نعتبرهم فلاسفة وعلماء اجتماعيين وعلماء أخلاق، بل نتحدّث عن تعليم الآباء من حيث أنهم أعضاء جسد المسيح المجيد، يتقبّلون إشراقات نور الروح القدس. ونحن إذا عشنا في داخل الكنيسة نبطل الفرد أشخاصاً وموضع أفعال الثالوث، فيستنير العقل ويصير منبراً للروح القدس. وكل عمل عظيم في الكنيسة ينطلق من الطاعة. وقد أطاع الآباء القديسين الله بملء الحرية فتغيَّروا وصاروا آنية لله، وعاشوا ثم تكلّموا لكي يساعدوا الآخرين أيضاً.

– أشكركم على التصحيح، وأسألكم أن تتعطفوا فتشرحوا لي شيئاً آخر، فقد ذكرنا قبلاً أنّ الراهب الهدوئي إذا قرأ القديس يوحنا آراء الذهبي الفم أدرك انه أب صحويّ. فلمَ لا نستطيع نحن تمييز ذلك، ونعتبر الآباء الذين كتبوا في موضوعات اجتماعية مجرّد علماء اجتماع وغرباء عن هذه الحياة الداخلية؟

– يحدث هذا لأنّ الروح القدس لا يعمل في داخلنا عملاً كافياً. والكتاب المقدّس ومؤلفات الآباء القديسين قد كُتبت بإنارة الروح القدس، وهي بالتالي تُشرح وتصير مفهومة بإنارته فقط. فمن له معتقد

الآباء، وعنده الروح القدس، يقرأ كتاب أي أب فيعرف فيه الأب الهدوئي، الصحويّ الذي عَرَفَ الرب الروح القدس. فإن القديسين فقط، لأنّ حياتهم متطابقة واختباراتهم مشتركة وطرق تعبيرهم واحدة. فهم يدركون النعمة التي تعمل داخل نفوس الآباء القديسين وفكرهم، من الكلمات التي يستعملونها، وأحياناً من طريقة تعبيرهم. فإن قرأ أحد معاييني الله أفاشين القديس باسيليوس الكبير في خدمة القداس الإلهي يدرك فوراً أنّ باسيليوس قد رأى النور غير المخلوق مع أنه لا يذكر ذلك حرفياً.

أما إذا درس علماء اجتماع أو علماء أخلاق مؤلفات الآباء المختلفة بدون أن يكونوا حاصلين على الروح القدس، فإنهم يعزّزونها ويفكّكونها. ويبدو لي أنّ استعمالنا مقتطفات منفردة من مؤلفات الآباء على المنوال أب خارج الروح النسكية لكي نؤيد بها أفكارنا الدنسة المركزة على الإنسان، لهو هرطقة (بدعة) كبرى. فعندما ننظر إلى أحد الآباء القديسين خارج إطار روح التقشف والتوبة الخ.. فإننا نفكّكه. وكل تفكيك هو تغير. وهذا ما فعله الهراطقة جميعاً. فقد استعملوا عبارات من كتب الآباء بدون أن يفهموها، وبدون أن يكونوا حائزين مسبقاً على شروط تفسيرها تفسيراً صحيحاً.

ولذا فإنّ شعار العودة إلى الآباء، الذي يُعلن اليوم، يقتضي منا أن نحقّقه لا بالاكتفاء بدرس النصوص الآبائية وحسب بل ببذل الجهد بغية اكتساب حياة الآباء القديسين أيضاً، فنحيا في كنيستنا المقدّسة وبالأسرار المقدّسة والفضائل المقدّسة، بالإضافة إلى أنه يجب علينا أن لا نبقى مجرد أفراد بل أن نحيا كأشخاص، كأعضاء للمسيح مكرّمين.

***

في تلك اللحظة دخل علينا المريد المهذّب، ليسأل عما يقدّمه لي. أما الشيخ فكان منهمكاً كلّياً في المحادثة، وقد نسي مراعاة عادة الرهبان في المجاملة المهذّبة المتّبعة عندهم، وهي أن يقدّموا للضيف شيئاً على سبيل البركة. فقد كانت المحادثة الروحية من القوة بحيث أنها أنسته كل شيء سواها.

– أجل. أحضرْ شيئاً للأب...

– ماذا أحضر أيها الشيخ؟ أأقدم له قطعة من الملبن، أو قليلاً من المربى، أو شيئاً آخر؟

بعد أن أمر الشيخ تلميذه بما يلزم، أخذ يشيد به فقال: إني في الحق لم أكن جديراً بأن يكون لي مثل هؤلاء المريدين. لكنّ الله قد رأف بحالي فأرسل لي ملائكة صغاراً. فليس لي في الواقع مريدون، إنما هؤلاء ملائكة يخدمونني. فكيف لي أن أرفع شكري العميق إلى الله الكلي القداسة؟ وهذا المريد بالذات قد قدم إليَّ أخيراً، وأفكاره أفكار طفل صغير. وهذا أمر ضروري لعمل الصلاة العقلية موضوع حديثنا. إنّ آباء الكنيسة يعلّمون قائلين: إن أراد أحد الخلاص وجب عليه أن يصير جاهلاً أي أبله حسب المسيح (نحن جهال من أجل المسيح)، أو طفلاً ''إن لم تعودوا وتصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السماوات''. وكلنا نستطيع بنعمة الروح القدس اكتساب المراهقة الروحية والذهبية الطفولية إزاء الشر، ولو سبق لنا ارتكاب أعظم الخطايا.

إنّ ناموس الحياة الروحية مناقض لناموس الحياة الجسديَّة. ففي الحياة الجسديَّة يتحوّل الفتى شيئاً فشيئاً إلى شيخ. أما في الحياة الروحية فالأمر يختلف، لأنّ الإنسان الذي صار شيخاً بسبب الخطيئة، يتحوّل إلى طفل.أحضرَ المريد بركة الكوخ على صينيَّة، وهي قطعة من الملبن، مع قليل من الماء. أمسكتُ كأس الماء بيدي والتمستُ من الشيخ بركته، قائلاً: أدعوا لي لكي أصير طفلاً أو أبْلَه...

هناك لحظات لا تستطيع فيها أن تصلّي لأنّ الكلام يتوقّف وتحس في قرارة نفسك بأنك في مسيس الحاجة إلى طلب الأدعية والبركات وإنك لتعيش هذا في الجبل المقدّس ''آثوس''.ولهذا لا تدعو، ولكنك تلتمس الدعاء.

– باركوا...

– الرب...

هذه هي التحية هنا. فلا يقال صباح الخير، ولا مساء الخير، ولا ليلة سعيدة. إلاّ انه يجري أحياناً بعض التعديل في التعبير كقولهم: ''أتمنى لكم صبراً جميلاً، أو سهراً حسناً، أو ..فردوساً رائعاً، أو...نهاية صالحة''.

بينما كنتُ أقول ''باركوا'' وأتناول قطعة الملبن الشديدة الحلاوة قلتُ في نفسي: أتمنى أن تعيش أيها الشيخ إلى سنين عديدة، أجل أن تعيش عمراً مديداً لكي نعيش نحن الخطأة أيضاً...

وساد صمت عميق. ولاحظتُ أنّ الشيخ كان يردّد ''الصلاة'' ودلَّ وضعه على أنه كان في حال اختطاف إلهيّ. فتهيبتُ ووجدتُ صعوبة كبرى في الكلام. ولكن كان من الواجب أن أتكلّم... فقلتُ:

– أريد أيها الشيخ أن أستوقفكم لكي أستأنف. إني أعرف أنّ حضوري إلى هنا في هذا المحيط غريب إلى حد ما. فما أنا سوى متطفّل يُصعّب عليكم حياتكم...

– لا..لا تقلْ هذا. فإننا نستقبلك كأخ لنا تعيش في العالم، وتجاهد الجهاد الحسن، ولك نعمة من الله.

– لا يمكن المقارنة بين النعمة التي لنا بما لكم.

– ومع ذلك فإنّ النعمة الإلهية تغدق عليكم أكثر ''لأنه حيث كثرتْ الخطيئة ازدادتْ النعمة جداً'' (رومية 5: 2). والله ينعم عليكم مزيداً من الرحمة، لكي يحفظكم في محبته. إنّ الله ليحبّكم أكثر...

– أقبل هذا كمجرّد تعبير عن اتضاعكم ..– قلت هذا وقد هزمَني حبُّه وتواضعه– ولكني أريد أن أتابع لأننا جئنا إلى هنا، لكي نستفيد كل الوقت، ولآخر دقيقة. لقد تكلّمتم سابقاً عن تأجيج القلب وقلتم إنه يتحقّق بالتأمل في العقاب الأبدي، والفردوس، وفي حال الخطيئة التي نتردّى فيها الخ..، أفما يُحدِث هذا بعض المشاكل؟ لقد قلتم إنه يجب أن نقوم بصلاة غير ظاهرة، لكي يكون العقل خلالها مجرَّداً من كل شكل. فهل هذه الأشكال تُعيق الصلاة النقية.

– بادئ ذي بدء أن أنبّه إلى أنّ هذه الأفكار ليست أفكاراً محضة وليست تخيّلاً وإنما هي عمل عقلي. فنحن لا نفكر وحسب، إنما نعيش.

أذكر على سبيل المثال أني كنتُ يوماً أتأمل الجحيم بضع لحظات قائلاً في نفسي إني جدير بهذا المكان بسبب كثرة خطاياي فما كاد يجول في نفسي هذا الفكر حتى وجدتُ ذاتي في تلك الظلمة الموحشة وذقتُ آلامها التي لا تطاق وأوجاعها التي تفوق الوصف. ولما أفقتُ من هذه الحال كانت قلايتي تفوح منها روائح كريهة.. لا يمكنكم أن تدركوا مدى قذارة الجحيم وما يعانيه المعاقَبون فيها من ألم...

لقد زاد شعوري الآن أني أمام شيخ قديس يركّز ذهنه على الجحيم. فتركته يكمل حديثه بدون أي تعليق...

– ثم إنّ تأجيج القلب مسبَّقاً يتمُّ بهذه الأفكار، قبل الصلاة. فإذا بدأنا الصلاة ذلك وجب أن نمتنع عن إشغال فكرنا في هذه الموضوعات، وعلينا أن نصب اهتمام عقلنا وقلبنا على كلمات ''الصلاة'' لنتوصل إلى أمر لم نكن نتصوّره، وهو ما نّبه إليه الآباء كثيراً، أعني أنّ العقل يصير إلى حال التجرُّد من الشكل والتخيّل.

الصلاة جهاد ومن شأنها أن تعزّز المؤمن في جهاده ضد الشيطان، وهي في الوقت عينه جهاد دامٍ مؤلم. فيجب أن نعمل على تركيز ذهننا على كلمات ''الصلاة''، ونجعل عقلنا أصمّ وأخرس إزاء كل فكر سواء كان خيّراً أو شريراً، يأتي به الشيطان. أعني أن نمتنع عن سماع الأفكار الواردة من الخارج وعن الردّ عليها، وأن نحتقرها ونرفض المناقشة فيها. يجب علينا أن نتوخى بكل وسيلة إسكات العقل إسكاتاً كاملاً، لأننا بهذا وحده نستطيع أن نحفظ ذاتنا في سكينة بحيث يكون ''للصلاة'' فعلها الناجع.

ومن المعلوم أنّ الأفكار تتجه من العقل إلى القلب فتشيع فيه الاضطراب. والعقل المضطرب ينقل العدوى إلى النفس فلو هبّت رياح الأفكار لأثارت في النفس أمواجاً كما تثير الرياح أمواج البحر.

والانتباه أمر ضروري للصلاة. لهذا يتحدّث الآباء عن الترابط بين الصحو والصلاة. فإنّ الصحو يحفظ العقل في يقظة واستعداد مستمرين، أما الصلاة فتحمل إلينا النعمة الإلهية، ونحن نتوصّل إلى هذه الغاية بطرق عديدة. لنضعْ في اعتبارنا قبل الشروع في عمل ''الصلاة'' الشريفة، أنّه يتطلّب منا أن تكون لنا خلاله رغبة ملتهبة وترقُّب مفعم بالأمل ومرارة شديدة وصبر جميل طويل مقرون بالرجاء في محبة الله.

نبدأ بـ ''تبارك الله إلهنا كل حين...'' ثم ''أيها الملك السماوي...'' وبعدها ''قدوس الله...'' ونتلو بعدها المزمور الخمسين، مزمور التوبة، بورع وخشوع، ثم دستور الإيمان. وننتقل إلى عملية تركيز عقلنا بالهدوء والصمت، ونؤجج عقلنا بالأفكار كما قلنا سابقاً ومتى التهب –وقد يتم ذلك مقروناً بذرف دموع– نشرع في ''الصلاة'' فنتلو كلماتها ببطء، ونتدارك في الوقت عينه شرود العقل لكي يتابع مسيرة الكلمات. أما الكلمات فينبغي أن تكون متواصلة بدون أن يفسح المجال لتسرّب أفكار أو حوادث أُخرى وبعد كلمة ''إرحمني'' نتلو الصلاة من جديد ''يا ربي، يسوع المسيح...'' وهكذا بحيث تصير دورة كاملة ونتحاشى تدخّل إبليس.

يجب أن تعلموا أنّ الشيطان سيحاول بكل وسيلة أن يفصم وحدة الكلمات وأن يقتحم العقل والقلب لعلّه يفتح ثغرة صغيرة يضع فيها قنبلة (لغماً) هي عبارة عن فكرة ينسف بها محاولتنا الشريفة ويدمّرها كلها. فعلينا ألاَّ نسمح له بذلك. وفي هذه الحال يجب أن نتلو الصلاة بصوت عال بالفم لتسمعه الأذنان، فيساعد هذا العقل على المزيد من التركّز.

وهناك طريقة أخرى هي نتلو الصلاة بالعقل أو بالقلب ببطء شديد. وبعد كلمة ''إرحمني'' نتوقّف قليلاً إلى أن يضعف انتباهنا، ثم نعود إلى تلاوته من جديد. وينصح الآباء القديسون أن نضيف عبارة ''إرحمني أنا الخاطئ'' إلى الصلاة في الأحوال التي نقصد فيها تأجيج القلب مسبقاً بأفكار تدور حول موضوع حياة الخطيئة التي نتردّى فيها.

وإذا تعب العقل من تكرار الصلاة بكاملها يمكن اختصارها هكذا ''يا ربي يسوع المسيح ارحمني'' أو''يا رب ارحمني'' أو ''يا ربي يسوع''. وكلما مضى المسيحي في تلاوة الصلاة جازَ له اختصار كلماتها. وبإمكانه أحياناً أن يكتفي باسم ''يسوع'' فيكرّره هكذا: يسوع، يسوع، يسوع، يسوع، يسوع...يسوعي. فتهبّ موجة من الصفاء والفرح لتشيع في كيانه. ومن المستحسن أن يبقى في هذه الحال الحلوة التي انتقل إليها وألاَّ يكفَّ عن الصلاة ولو كان فرضه المحدَّد قد انتهى. وعليه أن يُبقي على حرارة قلبه ثابتة كأنه يختطفها اختطافاً، ويستغل هذه العطية الإلهية، فما هي إلاّ هبة كبرى نفحه الله بها من الأعالي. وهذه الحرارة تساعد العقل مساعدة ناجعة فيتعلّق بكلمات الصلاة وينصبّ عليها انصباباً ويهبط إلى القلب ليبقى فيه.

ومن أراد تكريس يومه كلّه للصلاة فليعملْ بنصح الآباء فيصلّي ساعة ثم يقرأ ساعة، يستأنف بعدها الصلاة ساعة أخرى. وعليه ألاَّ يتوانى عن ترديد ''الصلاة'' إبَّان مزاولة عمله اليدوي.

وينصح الآباء أيضاً بوضع مناسب للجسم ليساعد المجاهد في الصلاة، وذلك بأن يجلس المصلّي، ساعات طويلة، على مقعد، مقفلاً عينيه أو مركّزاً إياهما على نقطة ثابتة. ومن الأفضل أن يثّبتهما على الصدر من جهة القلب. ويرى القديس غريغوريوس بالاماس أنّ النبي إيليا نموذج في هذا. فإنّه –كما يقول الكتاب المقدّس– قد صعد إلى رأس جبل الكرمل وخرّ إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه، وأخذ يصلي، فزال الجفاف (الملوك الأول 18 : 42– 45 في الترجمة البروتستانتية العربية).

أجل، يا أبتِ، إنّ النبي قد فتح السماوات بصلاته، فيما كان متَّخذاً هذا الوضع الجسماني. ونحن أيضاً نفتح السماوات بالطريقة عينها، فتهبط إلى قلبنا الجاف غيوث النعمة الإلهية.

لقد قرأتُ بعد زمن هذه الفقرة من أقوال القديس غريغوريوس بالاماس التي ذكرها لي الشيخ الجليل في الجبل المقدَّس. وقد كتبها رداً على الفيلسوف برلعام، الذي كان يسخر من الرهبان الهدوئيين وعملهم، ويطلق عليهم بهزء لقب ''حاصري النفس في صُرَّة البطن''. قال هذا الأب المتوشح بالله ''إنّ إيليا نفسه الذي كان الأكمل في رؤية الله، قد أزال الجفاف، الذي ظل قائماً سنين كثيرة، وذلك حين أخفض رأسه إلى ركبتيه، وجمع عقله في ذاته ووجَّهه إلى الله باجتهاد. وينصح هذا الأب المتوشح بالله أيضاً باتخاذ طريقة صالحة تساعد المصلّي، ألا وهي تثبيت العينين فيقول ''ويجب ألا تتجوّل العين هنا وهناك وإنما ينبغي أن يتركّز نظرها على الصدر أو على صُرَّة البطن، وأن تُرَدَّ إلى القلب قوةُ العقل الشاردة في الأمور الخارجية، بوضع الجسم على هذا النحو.

وتابع الشيخ كلامه قائلاً: أما المكان فيلعب هو أيضاً دوراً هاماً في هذا. فيجب أن يتوفَّر فيه الهدوء والصفاء الخارجي. وكذلك الزمن ينبغي أن يكون مناسباً، فإن العقل تشغله عادة أمور كثيرة بعد العمل طوال النهار. لهذا ينصح الآباء أن تتمّ رياضة الصلاة العقلية في الفجر قبل طلوع الشمس بساعتين. ففي هذا الوقت يكون الجسم كلّه مستريحاً والعقل غير شارد، فتأتي الصلاة فيه بثمر كثير.

– ما الطريقة التي يمكن أن نستعملها، أيها الشيخ، لضبط العقل في حال شروده، طالما أنه أمر كثيرة الحدوث؟

– ثمة أيام وساعات مجدبة لأسباب عديدة، تعسر فيها الصلاة. وعمل الصلاة في هذه الأوقات مضنٍ وصعب. غير أننا إذا أصررنا على أدائه ساعدتنا النعمة الإلهية على مواصلة الصلاة والتقدّم في طريق تألهنا حسب النعمة. سأذكر لكم بعض الطرق التي تعيننا في تخطّي هذه الساعات والأيام الجدباء.

ينبغي أولاً ألاَّ نفقد شجاعتنا، مهما كانت الأسباب. وعلينا في هذه الساعات بالذات أن نردّد صلاتنا بالشفتين. وقد يكون من امتيازات الأقوياء المنعم عليهم، أنهم يستطيعون أن يثبتوا عقولهم بسهولة على الكلمات، وأن يصلوا بدون تلكؤ. أما نحن فضعفاء وخطأة واكتظت نفوسنا بالأهواء فغدونا في مسيس الحاجة إلى بذل كل جهد لا بل إلى إراقة دمنا فعلاً في سبيل الوصول إلى ذلك. وإذا رأينا عقلنا يشرد

باستمرار ويفقد انتباهه، فليس لنا إلاَّ أن نلتمس المعونة من عند الله، كما فعل الرسول بطرس حين رأى الريح شديدة، وقد أوشك على الغرق، فصرخ إلى ربه مستغيثاً: ''يا ربّ نجني'' (متى 14: 3.).

وإذا هبّتْ فينا ريح الهواجس والضجر، فما لنا سوى الصراخ مثل بطرس مستنجدين، فيكون لنا ما حدث له ''وفي الحال مدَّ يسوع يده وأمسك به''. أعني أنه بعد صلاة متعبة، تتبدَّد حينئذٍ، بمعونة الله، كل هذه التخيّلات التي تأتي لتشغل العقل، لأن اسم المسيح يخرقها بطريقة غير منظورة.

أعود إلى القول إنه يجب ألاَّ يستولي علينا الذعر في هذه الأحوال، وما علينا سوى مواصلة المقاومة. ويجب أن تكون مقاومتنا من القوة بحيث تضارع شدة الاعتداء الذي يشنّه الشيطان علينا وفي ساعة الصلاة يجب ألاَّ نستقبل أيَّ فكر ولو كان صالحاً، لأنّ الأفكار شريرة أيضاً. أعني أنّ الأفكار الصالحة إبان الصلاة تفتح الطريق للشيطان لكي يدخل ويقطع عمل الصلاة المقدّس وبذلك نسقط في خطيئة الزّنى الروحي. فإنّ الآباء يقولون: إن ابتعد العقل عن ذكر الله خلال الصلاة وشرد هنا وهناك ارتكب زنىً روحياً. فهو يخون الله ويرفضه. وهل هناك أعظم من خطيئة خيانة يسوع الحلو وجحده لمصلحة إبليس عدو الخير الحسود؟

فإنّ عجزنا عن ضبط العقل وردّه عن تشتّته، بات من الضروري القيام بمزيد من الجهاد المضني. فإنّ السفينة يا أبتِ تشق غمار أليمّ بالشراع في حال هبوب الرياح، وإذا كان البحر هادئاً سهلتْ قيادتها بالمجداف. ويحدث مثل هذا في ''الصلاة'' فإنّ ملأتْ حرارة نعمة المسيح كياننا سارت ''الصلاة'' إلى غايتها بسهولة. أما إذا غابت النعمة فلا بدلنا من تجشّم مشاق التحرّك بواسطة المجاديف أي المزيد من الجهاد. وفي هذه الحال لا بد لنا من درس كتب الآباء التي تجمع العقل وترد الفكرة من شروده. ومتى شعرنا خلال الدرس بالخشوع لنتوقّفْ عن المطالعة ونستأنف ترديد ''الصلاة''.

هكذا يجب أن نفهم ما قيل عن وجوب قراءة كتب الآباء بقلب متأله لا بالمنطق الجاف. علينا أن نقرأ المؤلفات التي كتبت بالقلب، والقلب يقرأ هذه الكتب بارتياح. ومعنى هذا أنه يجب الجمع بين القراءة والصلاة.

علينا أن نتلو بعض مزامير داود أو أن نلجأ إلى الترنيم أيضاً. ومن المستحسن أن نكون قد أعددنا من قبل بعض الطروباريات الخشوعية التي تذكر محبة الله وتشير إلى حياتنا في الخطيئة، وإلى الحضور الثاني

للمسيح، وتنطوي أيضاً على التماس العون الإلهي الخ...ويجب أن نتلوها قراءة لا ترنيماً..أو أن نردد صلوات أخرى نظمها الآباء القديسون كالقديس إسحق السرياني. هذه كلها ينبغي في هذه الأحوال أن نتلوها بالفم كما قلت آنفاً. أما ''الصلاة'' فيجب أن تُتلى مصحوبة (بالحبل المعقود).

ولا شك أننا نجني بعض الثمار بهذه الطريقة والقليل منها على كل حال خير من حرمان التنعّم به مهما كان ضئيلاً.

أعود فأكرّر القول إنّ المرء في هذه الأحوال يحتاج إلى المزيد من الصبر والثبات. وقد تغدو الأفكار التي تخطر على ذهننا مفيدة في استعمالها من أجل تطهيرنا.

– أتساعد في التطهير؟ كيف يكون ذلك؟

– لا يكاد الشيطان يرانا ونحن نصلي ونسعى إلى تركيز الذهن على ''الصلاة'' حتى يعمل ما في وسعه لكي يحول دون ذلك. وهو يستغلّ كلّ شيء، وبخاصة الأفكار التي تشغلنا أكثر من سواها، ويضرب على وتر ضعفنا الذي يؤلمنا كثيراً فيوجّه قوسه إلى محبِّ الملذات فيقذفه بأفكار شهوانية، ويصوّب سهمه إلى محبّ المال محمَّلاً بأفكار تذكي فيه الطمع. أما محبّ المجد فيصبّ عليه رشقات من سهام أفكار الهوس بالعظمة والرفعة.

ومن الأفكار التي تجول في ذهننا خلال الصلاة ندرك ما فينا من نقاط الضعف، وما يمكن داخلنا من نجاسات، ونحسّ بمواطن الداء فنستطيع بعد ذلك أن نعيرها انتباهنا ونجاهد للخلاص منها.

– اسمحوا لي أيها الشيخ بالتدخّل... أعترف بأني قليل الخبرة في موضوع ''صلاة يسوع'' غير أني، حين أجاهد لكي أمارسها يحدث لي ألم في الدماغ وكثيراً ما يمتد إلى القلب أيضاً من شدة التعب. فما هذا؟ وما يجب عمله في مثل هذه الحالات؟

– إنّ وجع الدماغ والقلب يصيبان المؤمن في بدء هذا الجهاد الروحي، فيظن أحياناً أنّ دماغه سينفلق وأنّ قلبه سيتمزّق. ويزداد الوجع في الدماغ إلى حدّ يظن فيه أنه موشك على الموت. وهذا الألم طبيعي إلى حدّ ما، ومردُّه إلى عدم تعوّد العقل على ممارسة مثل هذا العمل وإلى وضع الجسم أيضاً. إلاَّ أنّ هذا كثيراً ما يكون موضع استغلال الشيطان لكي يوقف الصلاة. وفي حال وجع القلب فيجب أن يتأكد من

سببه فقد يعود إلى أنه مضى في هذا العمل قدماً قبل الأوان واستعمل طرقاً لا تناسبه. عدا هذا فإنّ وجع القلب قد ساعده لأنه يمكن أن يصير سبباً مباشرة لتركيز العقل على موضع الألم وقيامه بصلاة متواصلة.

– إنّ فكرتكم هذه مقتضبة جداً وإني لأرغب في المزيد من شرحكم لها. وأريد أن أعلم على وجه التحديد لماذا ينبغي الإصرار على الصلاة فيما يكون العقل متألماً؟

– لأنّ تطهيره يبدأ بعد ذلك مباشرة. وسيتجلّى هذا التطهير في الدموع إذ تبدأ بالهبوط بغزارة، كالنهر المتدفق، ويتنقّى العقل وينزل إلى القلب وحينذاك يتوقّف الألم ويكفّ الانزعاج. وهي دموع لا يمكنه ضبطها، ولا تفسيرها، ولم يبذل أي جهد من ذرفها.

توقّف الشيخ عن الكلام. ولمحتُ دمعة كثيفة تتدحرج من عينيه فأضاءتْ وجهه. ودمعتْ عيناي أيضاً عفوياً، وقد حطم صوته وأفكاره النيّرة قلبي المتحجّر، تذكرتُ القديس أرسانيوس الذي كتب عنه كتاب"الشيوخ" (الغيرونديكون) ما يلي: "لقد قالوا إنه قضى حياته منكبّاً على عمله اليدوي وعلى كتفه قطعة من القماش يسمح بها دموعه الهاطلة من مقلتيه. ويوم سمع الأنبا بيمين برقاده اغرورقت عيناه وقال:

"مغبوط أنت أيها الأب أرسانيوس لأنك بكيتَ على نفسك هنا في العالم. ومن لا يبكِ على نفسه هنا سيبكي عليها هناك في العالم الآخر أبدياً. ولا مفرَّ من بكاء المرء سواء هنا بإرادته أو هناك بسبب العذاب".

وقطع الشيخ عليَّ تفكيري فقال– وهو أشبه بالخارج من بحر دموع لا تنفد– لا حاجة إلى التوقّف فوراً إذا حلّ بنا ألم. فإنّ هذه الأفكار يدسُّها الشيطان الخبيث المجرم لكي يقضي علينا. غير أنّ المجاهد في الصلاة يعلم حيل الشرير وأفكاره... والشيطان يهمس له قائلاً: "كُفَّ عن الصلاة، وإلاّ فإنك ستتعرّض للجنون أو لداء القلب".

سأقرأ لك نموذجاً من كتاب"الشيوخ". "كان أحد الرهبان، إذا ما حان وقت صلاته، تعتريه قشعريرة وحّمى ووجع في الدماغ. فكان يقول في نفسه:ها إني مريض موشك على الموت، فلأنهض للصلاة قبل أن يدهمني الموت. وكان يرغم ذاته بهذه الفكرة ويُقبل على الصلاة. وما يكاد ينتهي منها حتى تزول

الحّمى. بهذه الفكرة صمد الأخ في وجه إبليس الشرير وقاومه بالصلاة فانتصر عليه وهزمه". لهذا يجب ممارس رياضة الصلاة" أن يَغُضَّ النظر عن أي ألمٍ يعترضه وأن يتخطَّاه.

– أرغب أيها الشيخ أن تفيضوا في شرح ألم القلب. فإني أعلم أنّ الآباء قد خصُّوا هذا الألم بالمزيد من الأهمية لاعتبارهم إياه طريقاً ملائماً تجتازه"الصلاة". وإني لأطمع في أن تذكروا لي بعض أفكارهم في هذا الموضوع

إن ما قلته أنت سابقاً حقيقة لا ريب فيها، فإنّ الآباء حين انهمكوا في درس"صلاة يسوع" أو بالأحرى عاشوا، مرّوا بهذا المقام. ولذلك أعطوه هذه الأهمية الكبرى. فلا بد أن يصيب هذا الألم على وجه التأكيد المنهمكين باستمرار بصلاة يسوع. إنهم يعلّقون عليه أهمية كبرى لأنّ حلول هذا الألم يعني أنّ العقل يهبط إلى القلب ويتم اتحاده به بفعل الروح القدس، فيشيع صفاء في النفس والجسد ويتنقى الجانب المفكّر في النفس ويمسي التمييز بين الأفكار واضحاً. وفي هذه الحال يمكننا تمييز الأفكار جيداً وندرك تطوّرها ونهايتها. وبهذا يستطيع الناسك الهدوئي أن يعرف حالة أحد الخطأة بدون أن يرتكب هو نفسه إحدى الخطايا. وهذا يحدث لأنه يعرف بعلمه الرياضي (النسكي) ذهنية الهاجس ومسيرته ونهايته.

وثمة حقيقية واقعية في هذا الإطار وهي أنّ فعل الصلاة في قلب الناسك يجعله شديد الحساسيَّة فيستطيع أثناء صلاته من أجل شخص ما يدرك بصورة تكاد أن تكون مباشرة حالته، وهكذا يصبح بصيراً.

ولكي أضع الأمور في نصابها أقول إنّ من أهداف"الصلاة"، كما قلتُ آنفاً، أن يُوحَّد الإنسان كله، أعني توحيد قوى نفسه الثلاث، بتركيز الانتباه على القلب، ليشعر(القلب) في البدء بفعل الصلاة ثم يتّحد العقل والقلب معاً. فالقلب حسب رأي الآباء يشعر أولاً بحضور الله أي نعمته الإلهية ثم يحرّك العقل أيضاً. وقد عاش الآباء اختبارياً (الحياة الروحية) أولاً ثم فكَّروا إلهياً(ثيولوجياً) لكي يصونوا الحياة. وعلى هذا فإنّ القلب يشعر أولاً بحرارة حضور الروح القدس وحلاوته. ويحدث نقيض ذلك إذا غابت النعمة الإلهية عن حياة الإنسان ويتضح ذلك من جمود قلبه وبرودته. وأكرّر القول إنّ الإنسان يحبّ الله بقلبه أولاً ثم بعقله. ووصية الله جليّه "أحبب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك" (لو1.: 27).

لعلكم تعرفون أنّ المنطق غير مرفوض في الكنيسة. غير أنه من بعد السقوط أمسى عاجزاً إلى حد كبير عن إدراك الله. ولكن إذا نما الإحساس الباطني الروحي تحرَّك العقل إلى إدراكه تعالى. فالقلب إذاً يتبينَّ حقيقية حالنا إذا كنا مخطئين أو محافظين على وصايا الله. لكنّ اتحاد العقل والقلب لا يتمّ إلاّ بفعل الروح الكلي قدسه.

ونحصل على النعمة الإلهية بالتوبة وبحفظ وصايا المسيح. أما العقل فهو يَجِدُ القلب ويتَّحد به بفعل النعمة. ولا ريب أنّ هذه خطوة هامة في سبيل''صلاة يسوع'' والتأله. ولهذا يجب على القلب البشري أن ينسحق، ''فالقلب المنسحق المتواضع لا يرذله الله''. لا ريب أنّ كثيرين يستعملون طرقاً عديدة متنوعة من أجل هبوط العقل إلى القلب، إلا أنّ التوبة آمنها وأنجعها. من المفيد جداً أن نشعر بألم في القلب بينما نبكي على خطايانا وأن نحسّ أحياناً بالحرارة تدبُّ إليه، وأن ندرك إجمالاً تحرّكه وتحسّه. غير أنّ هذا ينبغي أن يتمّ شيئاً فشيئاً، لأنّ حدوث هذا الفعل فجأة عند ذوي القلوب الضعيفة غير المعتادة على مثل ذلك قد يؤدي إلى نشوء حال من الانحراف البسيط بدون أي تطوّرات خطيرة، لكن من شأنه أن يوقف الصلاة. تحسن ممارسة الصلاة بالشفتين في حال حدوث مثل هذا الألم. وهذا الأمر يتبيّنه على وجه التدقيق مرشدنا الروحي المتّشح بالروح. وما هذا الألم إلاّ آية كمال الصحة وهو ألم طبيعي تماماً وخلاصي.

يظن كثير من المتنسكين أنهم قد أُصيبوا بداء القلب فيترددون على الأطباء، وهؤلاء لا يجدون عندهم أثراً للمرض، لأنّ هذا الألم هو ألم تسبغه النعمة الإلهية على الإنسان وهو دليل على أنّ الصلاة قد غارت إلى أعماق القلب حيث استقرت لتؤدي فعلها، وهي خطوة هامة إلى الأمام.

– لقد سبق أن سمعتُ أنّ العديد من القديسين أحسُّوا''بالصلاة'' تُتِمُّ فعلها في القلب، في لحظة معطاة، وهم يشعرون بنوع أخصّ بأنّ اللحظة عطية من الله بشفاعات السيدة والدة الإله. فهل هذا صحيح؟

– أجل. إنّ كثيرين من النساك الهدوئيين القديسين يعملون حقَّ العلم باللحظة التي تبدأ''الصلاة'' فيها بإتمام فعلها داخل القلب فيقبلون على ترديدها بصورة متواصلة حتى خلال قيامهم بأيّ عمل. وهم يشعرون أيضاً بأنّ ما حدث لهم إنما هو عطية من السيدة الكلية القداسة. وكان القديس غريغوريوس بالاماس يصلي أمام أيقونة السيدة والدة الإله قائلاً ''أنيري ظلمتي'' فنال موهبة التكلّم بالإلهيات.

ويجب أن يقال إنّ حبّنا للسيدة والدة الإله وثيق الارتباط بحبّنا للسيد المسيح. فنحن نحب والدة الإله لأننا نحب المسيح أو أننا نحبها لكي نصل إلى حب المسيح أيضاً.

والآباء القديسون قد عبّروا عن هذا بأجلى بيان. يقول القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية ''لو لم تكوني أنت السابقة يا والدة الإله لما تمَّ أي أمر روحي... ولا أحد مُخلَّص إلا بك يا والدة الإله''. أما القديس غريغوريوس بالاماس فقال: ''أفليست هي وحدها على الحدود بين الطبيعة المخلوقة وغير المخلوقة، ولا أحد يمكنه أن يأتي إلى الله إلاَّ بها وبواسطة المولود منها، ولا يُعطي الملائكة والبشر أيّ هبة من هبات الله إلاَّ بها؟'' فنحن ننال الكثير من العطايا بواسطة السيدة والدة الإله. وهي التي أعطتنا المسيح، أعظم هدية، أفلا تعطينا العطايا الأخرى أيضاً؟. فإذا وجّهنا إليها الصلاة فلنقل ''يا والدة الإله الفائقة القداسة خلّصينا'' غير مكتفين بالقول''تشفَّعي من أجلنا''.

–لأعودنَّ إلى أمر نشأ في ذهني عند تحدّثكم عن اتحاد القلب والعقل. هل يبقى العقل في القلب بعد أن يهبط إليه؟ وفي حالة كهذه كيف يعمل الإنسان؟ وهل يمكنه أن يؤدي وظيفته...الخ؟

– لنسجّل أولاً أنّ العقل لا يذوب ولا يزول وإنما يتكامل ويعود إلى حاله الطبيعية، وهو يكون غير طبيعي حين يكون خارج جوهره (أي قلبه). كما يطرد''بالصلاة'' كل العناصر الغريبة التي تسرّبتْ إليه. ثم إنّ العقل إذا هبط إلى القلب يبقى قسمٌ صغيرٌ منه زائداً– اسمحوا لي بهذا التعبير– وبهذه الفضلة الزائدة يمكنه الانهماك في أعمال أخرى من غير أن يؤدي هذا إلى عزل العقل عن القلب.

نذكر على سبيل المثال أنّ الكاهن الهدوئي يمكنه خلال قيامه بخدمة القداس الإلهي أن يظلّ منتبهاً لما يقوم به في أداء الخدمة الإلهية حسب ترتيبها، أو أن يتحدّث إلى كاهن و إلى شماس عن شيء متعلّق بسر الشكر دون أن ينفصل عقله عن قلبه. ولكن إن انهمكت هذه الفضلة الزائدة من العقل بأمور غير لائقة، فقد ينتج عن ذلك فصل العقل عن جوهره فصلاً تاماً. لهذا كان أحد النساك، إذا أقبل على تلاوة''الصلاة''،يحصي عُقَدَ حبله، بحيث يشغل هذه الفضلة من عقله لئلا تُحدث له شرّاً. ولعلكم قد أدركتم أنّ الشيطان يحاول استخدام هذه الفضلة من العقل، ليشنَّ علينا حرباً هوجاء...

4- حرب الشيطان ومجابهته

-إنكم تكشفون لي الآن أنّ الشيطان يشنّ علينا حرباً شرسة لا هوادة فيها. فلِمَ يحاربنا؟ وما هي خطته ومنهجه؟ إني لمتعطش جداً إلى سماع رأيكم، لكي نتمكن من تمييز ما يبدي الناس من آراء في موضوع"الصلاة"، لأنّ للعديدين مزاعم كثيرة ولا نعلم ما فيها من أفكار من صنع الشيطان ودسّه.

لم ينبس الناسك القديس الحكيم ببنت شفة وعاد إلى كتاب "الشيوخ" وفتحه ببطء ثم أخذ يقرأ: "سأل الإخوة الأنبا أغاثون قائلين: أيُّ فضيلة – أيها الأب – في الديار النسكية تحتاج إلى مزيد من الجهد؟ فقال لهم: إنكم ترأفون بي. لكني أعتقد أنه ليس هناك جهد يضاهي جهد صلاة المرء إلى الله، لأنّ الملاحَظ دائماً أنّ المرء إذا أراد الصلاة تألَّب عليه الأعداء لكي يُثنوه عن تأدية هذا الالتزام، فإنهم يعلمون أنّ الصلاة هي أعظم العوائق التي تعترضهم. وإذا تحمّل المرء أي طريقة حياة بصبر وثبات اكتسب راحة. غير أنّ الصلاة تتطلّب منا جهداً حتى آخر نسمة من حياتنا".

وأغلق الشيخ الكتاب ثم استأنف الكلام فقال: لقد علَّم الآباء القديسون قائلين إن لم يكن الإنسان واقعاً تحت سيطرة الشيطان بصورة دائمة، فهو كيفما كان الحال قائم في نطاق نفوذه وفي متناول هجماته الجنونية. والأبالسة يحومون دائماً حول النفس يترصدونها ويحاولون إسقاط المؤمن في الخطيئة عن طريق الحواس تارة (عندما يكون موضوع الخطيئة قريباً) وعن طريق المخيلة طوراً (حين يكون الشيء أو الشخص بعيداً) ويحاول الأبالسة إسقاطه أيضاً عن طريق ثورات الجسد. والإنسان بكامله نفساً وجسداً يمكن أن يقع تحت تأثير الشيطان والتردّي في أسره.

إلاّ أنّ خطة الشيطان الحربية تكون خلال الصلاة أشدّ وضوحاً منها في أيّ وقت آخر. والمجاهدون في الصلاة، هذا الجهاد العقلي، يرون الشيطان جلياً وهو يحاربهم بشراسة في كل خطوة يخطونها ويبصرونه وهو يلجأ إلى كل وسيلة ليعزل ذاكرتهم عن ذكر الله، وتتكشّف لهم حبائل إبليس الخبيث، قاتل الإنسان وعدوّ الخير.

قال القديس مرقس الناسك "إذا رأى الشيطان العقل مصلّياً من القلب هجم عليه بتجارب محمَّلة بالشر". فهو يكره الناس كراهية ليس لها حد. وإذا رآهم يقبلون على الصلاة بغية أن يصيروا ملائكة ويسترجعوا ما كان لهم من منزلة قبل السقوط، ازداد حقده عليهم. وقد وصف القديس غريغوريوس

أسقف نيصص حسد الشيطان للإنسان على تألهه فقال "إن ابتغينا نحن البشر القربى من الله يتحرّق الأبالسة حسداً وغيرة لأنهم سقطوا من قرابتهم للخير". فكل ناسك يمكنه أن يحكي الكثير عن هذه الحرب التي يشنُّها الشيطان. وإذا رأى النساك الشيطان أشفقوا عليه.

سألتُ: أيشفقون عليه؟ أغفروا لي، يا أبتِ، لأني لا أستطيع أن أفهم كيف ولِمَ يشفق النساك على الشيطان.

– إنهم يشفقون عليه لما آلت إليه حاله، ولسقوطه. فقد خُلق لكي يخدم الله ويمجده. أما الآن فقد بلغ حداً يقف فيه معادياً لعمل الله ومحارباً الإنسان الذي أحبه الله كثيراً.

والشيطان هو الآن روح هدم وتدمير متواصل لكل اتحاد صالح. هو زعيم الانقسام وقائده. والله يريد أن يوحّد أما هو فيفرق. والله يريد أن يُخلّص أما هو فيخرّب. وهو يحرّض الإنسان في كل آن على التمرّد على الله وعلى الكنيسة...

– وأين يجد النساك كل هذه القدرة لكي يحبُّوا؟

– يجدونها في عطية النعمة التي يملكون. والنعمة هي من الغزارة في داخلهم بحيث أنهم يريدون أن يحبوا الجميع كلَّ حين، بعد أن اكتسب قلبهم اتساعاً، بطرح الأهواء وأمسى شديد الرغبة في ضمّ الجميع لله. ولهذا يحب النساك، الذين تطهّروا، الثالوث القدوس، والسيدة الفائقة القداسة، والقديسين، والخطأة، والطبيعة، والحيوانات، ومع هذا يظلّ قلبهم الواسع مكان، فيحبون الشيطان أيضاً.. وهم يشعرون بأنه ليس سوى روح مائت ابتعد عن النعمة المحيية. وهو ينقل الموت إلى أولئك الذين يقتربون منه أو أنه يحاول نقله إلى كل من يبتغي الخلاص.

هؤلاء النساك القديسون، المفعَمون بمحبة إلهية يفكرون في عذاب الجحيم الرهيب الذي أُعدّ للشيطان وملائكته وتستولي عليهم الدهشة. فكيف لا يشفقون؟

فقلتُ: نحن، استبدَّت بنا أهواء الجسد، فأناخت علينا بظلماتها، وأعمتنا ذهنية الدنيا، واستولى علينا الشرير، ولذلك نجهل نواياه. ولم نحصل بعد على نعمة المسيح بغزارة حتى نتمكن بنور هذه النعمة، من

مراقبة كل تحركات الشيطان الشريرة المجرمة. أما أنتم فإنكم ترون ما يدأب عليه من جُهد وتدركون قلقه. فهل يمكنكم أن تذكروا لنا الطرائق التي تؤدي به فعلاً إلى الإتحاد بالله؟

– ما سأقوله لكم يا أبتِ يصعب عليكم فهمه. فقد يبدو لكم غريباً ومبالغاً فيه. وحتى الرهبان أنفسهم الذين يعيشون في العالم يعجزون هم أيضاً عن فهم جهاد رهبان الجبل المقدّس (آثوس) وما يواجهون من نشاط هجوميّ شرس شنَّه إبليس الشرير عليهم. وإننا لنراه في كل خطوة نخطوها وسأذكر لكم بعض الأمور لكي أساعدكم وأفيدكم.

جمدتُ في مكاني بلا حراك، وفتحتُ أذني لأسمع حكمة الشيخ وأطّلع على أحابيل الشيطان الشرير الكثيرة التعقيد. أما الشيخ فإنه من غير أن يترك مجالاً للانطباع بأنّ ما يقوله قد توصّل إليه بالاختبار، أخذ يقص عليَّ ما يلجأ إليه الشيطان من حيل خبيثة ضد من تستهويه صلاة يسوع.

– ما نكاد نستعد للصلاة حتى يستعد الشيطان هو أيضاً في الوقت عينه لمعارضة ذلك بالمقاومة والهجوم. هذا ما يجب على مزاول رياضة الصلاة أن يعرفه، لكي لا يضطرب حين يتلقّى أولى هجمات الشرير المفاجئة أو يواجَه في ما بعد بعملياته الحربية الشديدة التي يضع فيها كل ما لديه من معدات القتال.

(بينما كان الناسك المعتزل يتحدث خلتُ نفسي أمام قائد محنّك في الجهاد الروحي حامل العديد من الأوسمة وحائز على انتصارات كثيرة ومكلَّل بالعديد من أكاليل الظفر).

–إنّ الشيطان يحاول في البدء ثنيه عن الصلاة فينصحه بالانهماك في عمل اجتماعي آخر. ثم يستحضر له حوادث وأشخاص وحالات...

– إني شديد الفضول... فأريد أن أسمع عن طرق محدَّدة نجهلها نحن العائشين في العالم. أأبوح لكم بسرّ؟ لقد دفعتموني في هذه اللحظة إلى كره الشيطان وبالأحرى كره عمله وإلى الشفقة عليه في الوقت عينه.

– أجل. يا أبتِ. إننا نحن أيضاً نعيش هذا كل يوم. إننا نشعر بالكراهية تجاه ما يعمل. ونشعر بحبنا له في الوقت عينه ونعبّر عن هذا الحب بحزننا على المضلّ! ولكي أرد على سؤالك أقول إنّ غاية ''صلاة

يسوع'' هي استدعاء يسوع المسيح الملك إلى القلب، لكي يظهر ملكوت الله داخلنا وتشتعل شرارة النعمة المغطّاة الآنّ برماد الخطيئة. وبهذا يتحقق نداؤنا–طلبنا ''ليأتِ ملكوتك''. إلاَّ أنّ القلب هو الآن –كما قلتُ آنفاً– في حلكة من ضباب الخطيئة، والأبالسة يعملون فوقه. أقول فوق القلب لا في مركزه، ذلك لأنّ الفعل غير المخلوق، فعل الروح القدس، هو وحده الذي يستطيع الإتحاد بالنفس. أما الشيطان فقد أقام سيطرته فوق القلب، ومن هناك يراقب كل شيء.

صدّقني يا أبتِ. إني أشعر بين ساعة وأخرى بأنّ قلبي قد غدا شبيهاً بحديقة حيوانات. فالأهواء كلها شبيهة بحيوانات موجودة فيه، وهي تعوي وتزأر. وقد أجاد القديس غريغوريوس بالاماس المتوشّح بالله وصف ذلك بقوله: ''يصير الإنسان– ويا للأسف– قاتل بشر، لا حين يصير شبيهاً بالحيوانات البهم التي لا عقل لها وحسب، بل حين يصير شبيهاً بالزواحف السَّامة أيضاً كالأفعى أو العقرب. ذاك الذي كان قد رُتِّب له ليكون بين أبناء الله يصير وليد الأفاعي''.

فنحن إذاً نطمح''بالصلاة'' –بعد أن يتمثَّل العقلُ اسم يسوع الكلّي الحلاوة– إلى نزول المسيح، بكل ما له من مجد وجلال، إلى القلب، وإلى طرده الشيطان الذي يُظلم النفس بمختلف الأهواء بعد أن يُسدل غشاوة على النعمة الموجودة. فبحضور المسيح في القلب تستنير النفس، إذ تتلقى نعمة فوق نعمة، وهكذا بمقدار نزول المسيح إلى القلب ينهزم الشيطان ويختفي ويصاحب هربه صراخ وتأوّه لما نزل به من هزيمة ساحقة. وما التجارب التي يحدثها سوى أصداء لها.

– فيما كنتم تشرحون هذا، تذكّرتُ، يا أبتِ، المعذّبين بأرواح نجسة. فإنهم ما كادوا يرون المسيح حتى أخذوا يصرخون''ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ أجئتَ إلى هنا قبل الوقت لتعذّبنا'' (متى 8 : 29)؟ وتذكرتُ أيضاً حادث الشاب المعذَّب بروح نجس. وقد قال الرب ''أيها الروح الأخرس الأصمّ، أنا آمرك، أخرج منه ولا تدخله أيضاً. فصرخ الروح النجس وصرعه شديداً وخرج(مرقس9: 5– 26). أظن أنّ لما قلتموه علاقة بهاتين الحالتين فهل أنا مخطئ؟

– لا، أنتم على حق. وهناك حالات أخرى تبينّ ذلك. فإنّ الرب حين نزل إلى الجحيم حرَّر الأبرار الذين آمنوا به. وفي عبادة كنيستنا صورة معبّرة لعذاب الجحيم، فهي ترنّم قائلة: ''اليوم الجحيم يتنهد صارخاً: لقد كان الأصلح لي ألاّ استقبل المولود من مريم. فإنه جاء فحلَّ سلطاني وحطّم أبوابي

النحاسية... والذين كنتُ ملِكاً عليهم حرمني منهم. والذين كنتُ قد ابتلعتهم باقتداري قذفهم عني جميعاً... إنّ الذي صُلب قد أخلى القبور...".

وعدا هذا، ألم يقل المسيح نفسه "كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعة إن لم يربط القويّ أولاً. وحينئذ ينهب بيته" (متى12: 29)؟ ومعنى هذا أنّ نزول المسيح إلى القلب –حيث ينشط الشيطان ويعمل الآن– يرتبط بهرب الشيطان وتقييده فيمسي طبيعياً أن يزأر ويهيج ويصرخ عالياً، لأنّ المسيح قد جاء ليحلّ أعمال الشيطان. وفي مزمور صلاة الغروب "باركي يا نفسي الرب" وردتْ العبارة التالية: "أشرقت الشمس فاجتمعتْ (الحيوانات المتوحشة) وإلى صيرها ربضتْ". ويعلّم الآباء الصحويون قائلين "إذا أشرقت الشمس اختبأت الحيوانات الضارية في الكهوف وبين الصخور أي في أوكارها. وهذا عينه يجري عندما تشرق شمس النعمة في قلبنا. فإنّ الشياطين تهرب وتتوارى.

– إذا ما رُبط الشيطان، فمن الطبيعي أن يهدأ.

– ما يحدث هو عكس ذلك تماماً. فإنه يزداد حقداً ويعمل الآن من الخارج بكل وسيلة للتغلّب على المؤمن والعودة إلى قلبه إذا ما انطفأتْ فيه نعمة الله (وبمعنى آخر إذا ما أُسدل عليها ستار). فهو "يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أُشدّ شراً منه" لكي يحارب. وفي هذه النقطة على وجه التدقيق يكمن معنى التجارب كلّه. والخيال هو أدق وسيلة حرب للشيطان، تخيّل الماضي وتخيّل المستقبل، تخيّل الأعمال الصالحة، وتخيّل الأعمال الشريرة. تتوارد خواطر مختلفة تشغل العقل فيكفّ عن اللهج باسم يسوع. ويمعن الشيطان في محاولاته لكي يثني الإنسان عن إبداء أي اهتمام بالله، وليصرفه عن إظهار حبه له تعالى. وأهم ما يثيره فيه أنه يحمل إليه ذكريات زلاّت مختلفة ارتكبها أخيراً أو من قبل في حياته.

والآباء القديسون يقولون إنّ الحرب تكون عادة شديدة بمقدار قوة الأهواء في السابق. والحاجة تقضي بأن يدفع الإنسان ثمن كل لذة بما يوازيها من عذاب.

وفي حياة الآباء النسكية في النعمة علاقة وثيقة بين اللذة والألم. فإنّ اللذة قد جلبت السقوط والعذاب. وعلى هذا فإنّ العذاب (الألم) يعيد الإنسان إلى حاله الأصيلة ويشفيه. فلا بد له أن يتألم كثيراً. وسيدفع ثمن كل لذة شريرة بما يوازيها من عذاب لكي يحدث توازن. والحوادث التي سبق أن حدثتْ له من أعوام كثيرة فسبَّبتْ له التمتع باللذة وكان قد نسيها، لا بد اليأس والقنوط.

وأضاف الشيخ قائلاً: ستثور في ذهن المجاهد أيضاً خواطر تجديف. منها عدم تصديق موضوعات الإيمان الكبرى، والشك في ألوهة السيدة المسيح، وفي صحة نقاوة السيدة العذراء الكلية القداسة، وفي قداسة القديسين الخ... وكثيراً ما تتوارد هذه الشكوك ساعة الصلاة وتشتدّ إلى حد أنّ المجاهد يعبّر عنها بالشفتين أيضاً بدون إدراك ما يفعل، أو بغير إرادة منه.

وثمة حالات أخرى فيها شيطان الكسل والضجر وعدم الاكتراث. فتسيطر على المجاهد فكرة ملحَّة، هي فكرة مغادرة المكان والابتعاد عن شيخه المرشد، بفكرة أنّ هناك شيخاً أفضل منه ويحدث كثيراً أنّ الشيطان يضرم في نفس المجاهد نار الكراهية ضدَّ شيخه.

وثمة حالات يأتي فيها المريد إلى شيخه ليقول له بدموع وتنهد ‘‘لا أستطيع التعبير جيداً. ولكني سأفصح لك عما أشعر به. إني أكرهك، ولا أريد أن أراك. وإنّ ثورة رهيبة لتهبُّ في داخلي عندما أراك’’! وكثيراً ما يستولي النوم على المجاهد ليوقف صلاته.وهناك تجارب أخرى عديدة إلا أني أكتفي بما ذكرت.

سألته:.. كيف للناسك أن يقوى على تّحمل هذه الكثرة من المشقات وكيف له أن يصمد أمام هذا الهجوم الجنوني الشرس؟ قلْ لي أيها الشيخ. لا تصمتْ...

لكنّ الشيخ المجاهد بـ.... سكت، فقد استغرق في صمت عميق. ومن يدري ما أصابه من نيران العدو؟ ومن يعلم كم تجربة ألّمتْ به؟

– أيها الشيخ، لا تتوقف! أذكر لي الطرائق الناجعة لمجابهة هذا الشر.

– هنا يحتاج المجاهد إلى صبر وشجاعة. وبخاصة الشجاعة. وينبغي ألاّ يتزعزع وعليه أن يجابه الخيال باستدعاء متواصل لاسم يسوع، وأن يحصر فكره في كلمات‘‘الصلاة’’ ويثبت عليها، وألاّ يفكر في شيء آخر خلال الصلاة سواء كان شراً أو عملاً صالحاً. وإذا أحاط به الألم فيما عليه إلاّ أن يكون على يقين بأنّ شفاءَه قد بدأ. كما قلنا آنفاً ‘‘فإنّ المرأة وهي تلد تحزن، لأنّ ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح. لأنه قد ولد إنسان في العالم’’ (يو 16 : 21). مثل هذا يحدث هنا. فإنّ الإنسان الجديد يّخلق بواسطة الألم. إنّ حياة جديدة تولد، هي حياة المسيح...

يقول الآباء القديسون المتوشحون بالله إنّ على المجاهد أن يقاوم التجديف بالاحتقار. فإنّ التجديف لا يزول إلاّ بهذا النهج. والأفكار المجدّفة ليست منا وإنما هي هواجس الشرير. ويمكن القول إنّ هذا ينطبق عليه قول الرب: "لا تستطيعون أن تعبدوا الله والمال" أي أن العقل لا يستطيع القيام بعملين في آن واحد. فلا يمكنه أن يلتذّ بشهد"الصلاة" الكلي الحلاوة من جهة وأن يشك من جهة أخرى إبان الصلاة في قوة الصلاة شيء آخر. وما هذا الشك إلاّ هجوم يشنه الشيطان. فيجب أن يجابَه بالاحتقار. وإذا استمرَّ هاجس التجديف، وجب إفشاء أمره إلى الأب الروحي. حينذاك يزول فوراً. كما تزول أيضاً على النمط جميع هواجس التجديف المزمنة. والهاجس المزمن الذي يثور خلال الصلاة بنوع خاص لا بد للمجاهد من يفشي أمره بالاعتراف بوجوده أمام أبيه الروحي، وحينذاك يختفي الشيطان المختبئ تحت هذا الهاجس، كما تختفي الأفعى إذا ما رفعنا الحجر الذي اختبأتْ تحته.

وأما مقاومة النعاس الشديد، فتتطلّب جهاداً خاصاً. في هذا الجبل المقدّس صنع كثير من الآباء مقعداً برجل واحدة، فإذا دبَّ إليهم النعاس انقلب بهم المقعد وسقطوا معه إلى الأرض وحينذاك يستيقظون. وما هذا في حقيقة الأمر إلاَّ مظهر من مظاهر صراعهم مع الشيطان. عرفتُ راهباً وضع في قلايته إناء مملوءاً بالماء. فكان إذا نعس حمل الإناء ونقله إلى موضع آخر في قلايته. وعلى هذا المنوال كان يقاوم روح النعاس الشيطاني...

وعلى المجاهد أن يعتبر شيخه المرشد"صورة المسيح" وأنه لمثل موسى. وبقدرته وأدعيته سيخرج من عبودية مصر ويتحرّر من طغيان فرعون"الأهواء" وعليه أن يُقبل على المجاهدة، متغاضياً عن نقاط الضعف عند شيخه، وهي التي يضخُمها له الشيطان. وعليه أن يرى ما يبدي من حب لله وما يتحلّى به من نبيل المناقب. وإذا حدث أن تبينّ صدفةً أنّ لشيخه خطايا كثيرة وأهواء متعدّدة فعلية أن يتجنّب انتقاده وليعتبرْ خطايا شيخه المرشد، خطاياه الشخصيّة. وليذرف الدمع الكثير بسببها.

وقد شرح القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذا السلوك بأجلى بيان بقوله: "إذا كنتَ مقيماً في دير جماعي للإخوة، فلا ترغبنَّ في اتخاذ موقف الأب الذي قص شعر رأسك (شرطنك راهباً) حتى لو رأيته يزني أو يسكر، ولا ضد أمور الدير التي يبدو لك أنها تجري بطريقة سيئة. وليس هذا فقط بل عليك ألاّ تقف موقفاً مضاداً حتى لو وبَّخك وأهانك وتعرّضتَ للكثير من المضايقات. ولا تجلسنَّ مع الذين يشتمونه ولا تسلكنَّ مع المتآمرين عليه. واصبر عليه حتى النهاية ولا تشغلنَّ فكرك في سيئاته. وَضَعْ في

قلبك ما يفعل من أعمال خيّرة، وألزمْ نفسك بتذكُّرها وحدها فقط. وأما ما تراه من أمور غير لائقة، أو شرور تصدر عنه سواء كانت بالفعل أو بالقول، فهذه سجّلْها على نفسك واعتبرها خطايا ارتكبتها أنت وتُبْ ذارفاً الدَّمع. واحسبْه قديساً والتمسْ دعاءَه''.

يُطلب منه هذا ليمتنع عن انتقاد شيخه. لأنّ هذا الانتقاد من شأنه أن تزول معه الطاعة والاتضاع. والاتضاع أساس الطاعة وغايتها النهائية. فإذا زال تعذّر الخلاص.

سألته: هجمات شخصيَّة؟ ما هذه الهجمات وماذا تعنون بها؟

– هنا أسألك أن تدعني أكمل حديثي. فإنكم لا تستطيعون أن تفهموني. وقد يبدو لك ما أقوله مدعاة للاستغراب لأننا لا ندرك الحياة النسكية.

– أيها الشيخ، إني لفي لهفة إلى المعرفة. فأسألك باسم يسوع المسيح أن تعلّمني. فقد وجدتُ الآن مبتغاي وأودّ ألاّ أظل في الحرمان. قلْ لي...

قلتُ هذا وقد شعرتُ بما يعترضه من صعوبة. فماذا كان يمكن أن يقول لنا نحن الذين لنا ملابس جلدية للمنطق؟

– لن أقول لكم أموراً كثيرة. وسأكتفي ببعضها... تُسمع أصوات وضحك، ومشادات كلامية عنيفة خارج القلاية.. كأنّ المكان مزدحم بالناس. وما ذلك إلاَّ ليصرف الشيطان انتباه المجاهد عن ''الصلاة''. وكثيراً ما يقترب منه فيشعر برعب رهيب ويستحوذ على نفسه وجسده ألم شديد لا يقاس بما يصيب المرء من خوف في حضور المجرمين. لأنّ الجحيم بكامله يقترب منه. ويتخذ الشيطان أشكال حيوانات متنوعة لكي يخيفه. وفي سيرة القديس سابا نجد الشيطان يتشكّل في صورة أفعى أو عقرب أو أسد الخ... ''وبينما كان جالساً على الأرض في منتصف الليل كان الشيطان يتشكّل أمامه في صور الأفاعي والعقارب محاولاً إرهابه. ويظهر له الشيطان أحياناً أخرى بشكل أسد مرعب يهدّده بالافتراس. ويظهر الأبالسة في ظروف أخرى وهم يحملون بأيديهم ناراً ويهدّدون المجاهد بالحرق''. وقد ذكر القديس سمعان حادثاً مماثلاً فقال: ''كانوا واقفين بعيداً عني ويحاولون أن يخيفوني، ويحملون ناراً بأيديهم ويهددوني بالحرق. وكانوا يصرخون بأصوات عالية وهم يحدثون قرقعات...''.

ويحدث أيضاً أنّ الناسك يشعر بيدين تستعدان لخنقه فيما يكون جالساً على مقعد وهو يردد"صلاة" يسوع، فتقبضان على عنقه بشدة لتمنعاه من متابعة"الصلاة". فإذا به يشرع فيها قائلاً: يا رب.. ويصعب عليه الانتقال إلى ذكر اسم"يسوع" الخلاصي. فيتمتم ببطء: ي.. س.. و.. ع... وما يكاد أن يكمل حروف هذا الاسم الكريم بعد جهد حتى يختفي الشيطان.

ويأتي إليّ رهبان أديرة مختلفة ويذكرون لي أنّ الشيطان يشنّ عليهم هجمات جماعية ليخيفهم ويرعبهم، وعلى وجه التحديد فيما يستعدون لصلاة السهرانية (الأغريبنا).

– ماذا تقصد بالهجمات الجماعية؟

– إنه يهاجم في الوقت عينه راهبين أو خمسة أو عشرة ويحاول خنقهم أو إحداث أي ضرر لهم. وقد حصل أنَّ راهباً حلَّ به رعب شديد، فهرب من القلاية ووقف مذعوراً أمام قلاية الشيخ المرشد ينتظر نهوضه من النوم. لهذا لا يستطيع الناس العالميون أن يفهموا ما لصلاة الأغريبنا من قيمة. فإنها تحرق الشيطان الخبيث وتسحقه. أما هو فيعمل كلّ ما وسعه لكي لا يتمّ ذلك لأنه يعلم أنّ ممارسة الصلوات طول الليل تضربه ضربة قاصمة.

والشيطان يوحي بأفكار إلى صحفيين وسواهم لكي يحولوا دون تحقيق هذه الصلوات. لهذا أرجوا منكم أن لا تهملوا إقامة سهرانيات كثيرة في الأبرشية التي تؤدّون فيها خدمتكم الكهنوتية، فإنهم وسيلة ناجعة لمقاومة الشيطان.

– نحن، أيها الشيخ، خطأة إلى حد أننا لم نعد نشعر بهذه الهجمات التي يشنّها الشيطان علينا. وطالما أنه يعتبرنا له وقد أمعنّا كثيراً في الخطيئة، فلمَ يهاجمنا..؟

– أتسمح لي بأن أسدي إليك نصيحة؟

– بالتأكيد، ولستُ لأسمح لكم بذلك وحسب بل إني أتوسّل إليكم أيضاً...

– لا تقولوا هذه الفكرة: إنكم خطأة وإنّ الشيطان لا يهاجمكم شخصياً، لأنها فكرة مُضِلَّة قد يستغلّها الشيطان ضدكم.

– كيف؟

– إن قلتَ إنك غير مستحق بسبب الخطيئة قد يستغل الشيطان ذلك فيهاجمك شخصياً لأنه يسمع ما تقول. فإذا قمتَ بعمل صالح أو بممارسة إحدى الفضائل قد ينتهز هذه الناسبة للظهور لكي يثير لك معناه أنك ذو شأن، ويوسوس لك بالكبرياء وحب المجد الفارغ...

انحنيتُ بسرعة بدون أن يحس بي جيداً، وقبضتُ على يده وقبلتُها بمحبة واحترام، تقديراً مني لما يتحلّى به من حكمة روحية اكتسبها بعد المجاهدة طوال سنين...

واستأنف الشيخ حديثه قائلاً: إنّ الشيطان كثيراً ما يظهر للمجاهد ويكلّمه ويتحدّاه لكي يجرّه إلى محادثته، فيتّهمه تارة، ويمدحه طوراً ويهزأ به حيناً، ويفسّر له بعض الحوادث تفسيراً خاطئاً حيناً آخر الخ.. أما عديمو الخبرة في هذا الجهاد الروحي فإنهم يشرعون في محادثة الشيطان، ويردّون على أسئلته وإهاناته. لكنّ هذا ضلال، وبخاصة عند المبتدئين (من المريدين) لأنّ عديمي الخبرة في مثل هذه الأحوال يصابون بالهزيمة، حتى ولو بدا لهم أنّ الشيطان قد ولّى أمام معارضتهم. وتخلّف هذه المحادثة في نفوسهم اضطراباً وخوفاً. وإذا تذكّروا بعد زمن ها المشهد وما جرى فيه من حديث مع الشيطان اعترتهم قلقلة واضطراب. وينصح الآباء القديسون أولئك الذين تنقصهم القدرات اللازمة ولا تتوفّر فيهم شروط الأهلية الواجبة.. بأن لا يردّوا على الشيطان. وأن يواجهوه بعدم الاكتراث ويحتقروه. ويجب أن يقفوا منه هذا الموقف في حرب الهواجس أيضاً. فالمطلوب إذا هو احتقار الشيطان وفي الوقت عينه الإصرار على مواصلة''صلاة يسوع''.

وبعد برهة صمت استأنف قائلاً:

– يلزم في كلّ هذه التجارب أن نصرّ على مواصلة ''الصلاة''،وأن نكون إجمالاً في هذه حال صلاة. وعندما نقول حال صلاة فإنما نقصد بها صوماً هادفاً وسهراً للصلاة (أغريبنا) ومشقّة جسدية، وصمتاً. وكل هذه يجب أن تتمّ في مناخ الطاعة. وأن نحققها مقرونة ببركات مرشدنا الروحي.

قلتُ: لِمَ ترتبط الرياضة الجسدية (أي الصوم والسهر والصمت والمطانيات) بالصلاة ارتباط وثيقاً إلى هذا الحد، وتُعتبر حال صلاة؟

– إنّ الجسد يشارك في عمل الصلاة. وبما أنه هو أيضاً ينال النعمة الإلهية لذلك يجب أن يجاهد. وعدا هذا، فإننا بالرياضات والآلام ننشئ الشروط اللازمة لنوال النعمة الإلهية.

والقديس غريغوريوس بالاماس يذكر حالة سر الكهنوت لكي يؤيّد هذه الحقيقة. فيقول إنّ النعمة الإلهية تنتقل إلى الشماس (المرشح) أو إلى الكاهن أو إلى الأسقف، في سر الكهنوت ''ليس بطريق الصلاة التي تتلى بالذهن وحسب بل أيضاً عن طريق الجسد الذي يشترك بواسطة اللمس''. ويقصد بذلك أنّ رئيس الكهنة لا يكتفي بالصلاة من أجل أن تحلّ النعمة الإلهية المحيية وإنما يضع يده أيضاً على رأس المتقدّم للشرطونية (الرسامة). وهذا عينه يحدث في ''صلاة يسوع''. فلا يكفي أن نردّد الصلاة بالذهن لكي ننال النعمة وإنما يجب أن يشترك الجسد أيضاً لأنّ الإنسان مؤلف من نفس وجسد والجسد يجب أن يخلص أيضاً، ولذا فإننا باستنادنا إلى الآباء نستطيع أن نؤكد أنّ من يرفض مبدأ الصلاة: الورع والدموع، الوجع والتنهد والصمت، ينكر كيان الصلاة نفسه. وأكرّر القول إنّ كل هذه يجب أن تتمّ ببركات مرشدنا الروحي لكي لا يستغلّها الشيطان.

حدّثت نفسي..''إنّ هذه المجاهدة عسيرة..'' ووجّهتُ الكلام إلى الشيخ قائلاً: إنّ عمل الصلاة كما شرحتموه لي صعب. وطالما أننا معرّضون لهجمات ضارية إلى هذا الحد من جانب العدو، وتصدمنا أمواج الشرير العاتية حاملة إلينا شرور مملكته الشيطانية، فكيف يقوى المرء على مقاومتها؟

5- مَجِيء النِّعمة وَتَوَارِيها

- أرى من الواجب أن أزيد في توضيح هذه النقطة. إنّ النساك يعرفون خبث الشيطان، ويعرفون أيضاً هزيمته وضعفه. يعلمون بالخبرة حقد الشيطان، لكنهم يعرفون أيضاً معرفة جيدة إحسان [المسيح][1] وحبّه للإنسان حباً كليّ الحلاوة. وفي هذه الحرب يتفوّق إحسان المسيح وحبّه للإنسان. فإنّ الرب يأتي إلى النفس رويداً رويداً، وكلما زاد اقترابه منها زادها نعمة وفرحاً. فبعد كل معركة تجيء إلى النفس نعمة إلهية: فرح وسكينة وصفاء، وهي نعمة غير مدركة، يعجز البيان عن وصفها.

قال القديس غريغوريوس السينائي إنّ المبدأ الحقيقي للصلاة حرارة قلب تحرق الأهواء، وتنشئ في النفس بِشْراً فضلاً عن الفرح''. إننا لنشعر بهذا جيداً، لأننا نعيش حالة لم تكن لنأمن قبل، تهدأ فيها كل الأمور داخلنا ويسودها السكون. أما ''صلاة يسوع'' ''يا ربي يسوع المسيح ارحمني'' فتصير تمجيداً (ذوكصولوجية) ''المجد لك يا الله''. حينذاك نواظب بنوع أخص على ترديد اسم يسوع، لأنّ ''يسوع يكون ههنا'' (يو 11: 28).

[1] ما جاء بين قوسين [] غير موجود في النسخة الالكترونية التي أُرسلت لنا. ولكننا وضعناها لأن هذا هو سياق النص بحسب ما يتضح لنا. ونرجو ممن لديه نسخة مطبوعة من الكتاب، أن يقوم بعمل Scan للصفحة ويرسلها لنا لنقوم بتعديلها.... (الشبكة)

وذكر اسم يسوع بالعقل المتركز في القلب يتم برغبة شديدة وبدون جهد. وهو في كل مرة يُذكر فيها يحلّي القلب، ونشعر برغبة ملحَّة في أن نخسر هذه الساعة الإلهية، ونحنُّ إليها غاية الحنين.

إنّ شيخي الدائم الذكر كان يقضي ست ساعات مردّداً ''صلاة يسوع'' ولكنه كان يقول إنه لم يقضِ في هذه الصلاة سوى ربع الساعة...وفيها يأتي الفرح متدفّقاً كالأمواج، وحينذاك يدق القلب دقاً. وقد تكلّم كثيراً من الآباء عن وثبة القلب هذه.

– إني أذكر أيها الشيخ أنّ البار نيقوديموس أيضاً يشرح على هذا المنوال صلاة السيدة العذراء الكلية القداسة: ''تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي''.

فقد تذكّرتُ فعلاً في تلك اللحظة تعليم القديس نيقوذيموس حيث يقول: ''ذاك يبتهج، من يثب قلبه ويقفز ويرقص من الفرح الممتد، البالغ أقصى غايته، فهو يتحمّس بطريقة ما ولهذا يسمي الآباء الصحويون هذه البهجة رقصة القلب أو وثبته، من فعل النعمة الإلهية ويضيف القديس نيقوذيموس قائلاً''إنّ قلبك يرقص إذا أرادت النعمة أن تفتقدك وكلما شاء الروح القدس أن يُجري فعله سرّياً داخل نفسك، خلال الصلاة الشريفة المسمّاة بالصلاة القلبية''.

وتحدّث العديد من آباء كنيستنا عن وثبة القلب ورقصه. نذكر على سبيل المثال القديس غريغوريوس بالاماس، الذي قال''...إنّ رقص القلب أشبه بمن يثبون بحماسة المحبة للخير، ويعتبر باسيليوس الكبير وأثناسيوس العظيم أنّ هذا هو آية النعمة''.

– أجل –قال الناسك القديس ذو الخبرة الواسعة– إنّ الأمر لكذلك. فإنّ نعمة المسيح تأتي إلى قلبنا بعد جهاد بطوليّ مرير مفعم بالألم فتضفي عليه السكينة والصفاء. لكنها لا تأتي إلى كل شخص بالطريقة عينها. الأمر يتوقّف على تقدّم المرء روحياً، وعلى فعل الروح القدس، الذي يفعل كما يشاء ما هو موافق...''إنّ بدء النعمة يتجلّى في الصلاة للبعض بصورة متفارقة وتوزيع الروح يتمّ بطرقٍ كثيرة...ويّشاهَد ويُعرف حسبما يشاء هو'' مثال ذلك إيليا النبي. فقد أحسّ بروح عظيم قدير يبدّد الجبال، عقبه زلزال، وحفيف نسيم لطيف''وهناك كان الربّ''.

ويشرح البار غريغوريوس السينائي هذا فيقول''إنه يأتي كروح خوف إلى البعض، وبخاصة إلى المبتدئين، يبدّد جبال الأهواء، ويسحق القلوب المتحجّرة القاسية(يعني توبة ودموعاً يذرفها المرء بسبب حياة

الخطيئة التي سبق له أن عاشها في ما انقضى من عمره) أما المتقدّمون فيأتي إليهم كزلزال يعني ابتهاجاً(وهذا هو الرقص الذي ذكرناه آنفاً)وإلهاباً محرقاً للقلب. وهو يأتي أيضاً إلى الأكثر تقدماً كنسيم لطيف''يشيع سلام نور''.

فالمبتدئون يتقبّلون بعض أفعال النعمة. أما المتقدّمون فيحظون بملء النعمة. سأقرأ لك هذه الفقرة من أقوال البار غريغوريوس:

''..على النمط الذي ظهر فيه لإيليا التسبيتي يظهر فينا أيضاً. فيأتي إلى البعض روح خوف، مُبدّداً جبال أهواء، ساحقاً صخوراً هي القلوب القاسية بحيث يجعل المرء يستمر متجمّداً من الهلع، ويمسي الجسد مائتاً. ويأتي أيضاً إلى آخرين كزلزال عنيف، يعني ابتهاجاً(وهو ما دعاه الآباء رقصاً) يُستقبل في أعماق الذات قبل كل شيء وهو غير مادي وجوهري. لأنّ ما ليس جوهر ولا كيان هو أيضاً موجود. وأخيراً يفعل الله سرياً حين يظهر بالروح في آخرين وبخاصة المتقدّمين في الصلاة كنسيم لطيف''يشيع سلام نور''، ولهذا قال الله إيليا في جبل حوريب إنّ الربّ ليس هنا أو هناك في بعض الأفعال (الإلهية) التي تُعطى للمبتدئين وحسب بل في نسيم نور، لطيف أيضاً، مبيّناً بهذا الجانبَ الكاملَ في الصلاة''. ومعنى هذا أنّ جهاد شخصي، وما نُظهر من اتضاع.

– فهل تأتي النعمة إذاً ثم تذهب من جديد؟

– أجل. إنّ النعمة تأتي وتذهب لكي تأتي من جديد، ثم تتوارى. الله يَرسل نعمته ثم يستردُّها. وفي بدء هذا الجهاد العقلي تكون المسافات التي تفصل بين استرداد النعمة وعودتها أكبر. إلاّ أنّ المسافة تقصر بعد الرياضة لفترة طويلة. والمجاهد يعرف هذا الافتقاد المتعدّد من جانب النعمة واختفاءاتها.

– لكن...لماذا يحدث هذا؟ وما الغاية من مجيئها ثم ذهابها؟

– تأتي النعمة لتعزية المجاهد وإسعاده. ثم تذهب لتتوفّر له إمكانية التمثل والطلب والتذلّل. أعني لكي يدرك المجاهد أنّ ما حدث هو عطية إلهية، وأننا بالتالي غير مستحقين تماماً لقبولها. وكثير من الرهبان يعرفون جيداً''لعبة النعمة'' هذه من اختباراتهم، وقد تدوم سنوات طويلة بين مجيء وذهاب. ففي الحالة الأولى تعزّز النعمة الإلهية الراهب بمجيئها، وتفعم نفسه بتعزية إلهية، وكأنها تقول له''ها إني هنا)! وفي الحالة الثانية تذهب النعمة لكي يتمثّلها. وهذا هو العمل الأصعب. ويحتاج إلى جهد كثير وصلاة حارة

لكي يتمثّل المرء النعمة التي نالها. لأنّ ثمة حالات تلقّى فيها بعض الرهبان النعمة الإلهية ولكنهم سرعان ما رفضوها. أفلم يحدث هذا الأمر عينه للرسول بطرس؟. فلقد تلقَّى على جبل ثابور نعمة غزيرة إلا أنه لم يكن حتى ذلك الحين جديراً بتمثُّلها. فانتهى به الحال على إنكار المسيح.

إنّ مرحلة التمثُّل هذه مرتبط بطلب مؤلم. فالمجاهد يدرك الآن أنّ النعمة موجودة (بظهورها) وهذا ما يدفعه إلى طلبها من جديد، باكياً. إنه ينتحب كطفل يفتّش عن أمه المتوارية.

"أين أنتَ، يا نوري؟

أين أنتَ يا فرحي؟

لَمَ تركتَني وقلبي يتألم؟

لَمَ تواريتَ عني ونفسي تنتحب؟

عندما جئتَ إلى نفسي أحرقتَ خطاياي.

تعالَ الآن أيضاً إلى نفسي

وأحرق خطاياي منم جديد،

خطاياي التي أخفتك عني

كما تخفي الغيومُ الشمسَ.

تعالَ إليَّ، وأبهجني بحضورك.

لَمَ تبطئ يا رب؟

أنت ترى أنّ نفسي تشقى مكدورة

وأني أعود إلى طلبك بعبرات

فأين تختفي؟

وكيف لا تراك نفسي

وأنت الحاضر في كل مكان.

إني لأطلبك بقلب قد أناخ عليه الألم بكلاكله.

هكذا كانت العذراء الكلية الطهارة مع يوسف

يفتشان عنك يوم كنت غلاماً فتياً. وقد أضناهما الحزن.

ترى بماذا فكّرت إبّان حزنها

حين لم تعثر على ابنها الحبيب؟..''

غضب القديس سيرافيم ساروف على أحد الإخوة وحزن، ففارقته نعمة الله. فاستفدح الحرمان منها واعتبره أعظم كارثة حلَّت به وحينذاك فقط عرف عذاب آدم ونحيبه لفقده الاتصال بالله وخروجه من الفردوس. وأقام القديس سيرافيم على صخرة لزمها ألف يوم وألف ليلة، يتضرّع طالباً النعمة الإلهية. ولم ينزل عنها إلاَّ بعد أن استعاد النعمة.

وتابع الشيخ الروحاني كلامه قائلاً:

– يتبينّ من هذا أنّ النعمة تنكفئ لكي تتيح للقلب أن يحب حباً أكثر، ويتعطّش تعطشاً أشد بعد خبر حلاوة النعمة وعرف ما يخلّفه غيابها من فراغ. وبعد أن تذوّق أيضاً مرارة الخطيئة يعود إلى طلب النعمة من جديد، فلا يحدث ذلك عنده شعوراً بالخيبة أو نقصاً في الإيمان ويجب أن أضيف إلى هذا أنّ النعمة الغزيرة بعد أن تكتنف العقل، وتقوده إلى الجذب، سرعان ما تفارقه(وبخاصة في البدء''لكي لا يموت'' ويكون أشبه برضيع قد أسرَف في الطعام وتقيّأه. هذا ما يقوله القديس سمعان: ''حينئذٍ بعد أن تكتنف(النعمة) العقل فجأة لوقت قصير تخطفه إياه إلى حال جذب، ثم تتركُه بسرعة– لكي لا يموت– بحيث لا يفهم شيئاً مما حدث بسبب السرعة القصوى ولا يتذكّر جمالاً أبصره، ولا يحتويه لئلا يأكل وهو رضيع غذاء الرجال الكاملين فيصاب فوراً بانهيار أو يتضرّر ويتقيَّأ فإنها (النعمة) من ذلك الحين ترشد وتقوّي وتعلّم آتية ومغادرة، فنحتاج إليها. لكنها لا تأتي لعوننا متى أردنا نحن– فإن هذا للكاملين — بل عندما نعجز وننهار تماماً فتشرق من بعيد وتجعلني أحسُّ بها في قلبي''.

إنّ لمجيء النعمة وذهابها ميزة خلاصية أيضاً. فهي تأتي قليلاً فتطهّر الإنسان من أحد الأهواء ثم تذهب. ولكنها تعود من جديد لتطهّره من هوى آخر. وتظل تعمل على هذا المنوال إلى أن يتمكّن المرء بمساعدة النعمة الإلهية المحيية من تطهير الجانب الانفعالي في النفس وبعد جهد كثير وتضحيات عديدة تحين اللحظة التي فيها تثبت النعمة تقريباً في القلب فيغمره صفاء مستديم. وسكينة غير منقطعة، وشعور بالحلاوة أبدي. فإنّ جبل ثابور يكون في النفس..السماء على الأرض... ملكوت يملأ القلب...الثالوث القدوس داخلنا...الإنسان حسب صورة الله ومثاله!...

تأملتُ في ما بلغه حب الله لنا، ذلك الحب العظيم!. لقد قرأتُ أخيراً في كتاب روحي ما يتفق وكلام الشيخ، وقد جاء فيه ما يلي: "ما لم تختبر بنفسك أفعال الشيطان وحبائله وهجماته فإنك لن تدرك لا بل إنك لن تقْدُر إحسانات الروح المعزي التي يمنحك إياها. وما لم تعرف الروح الذي يقتل فلن تعرف الذي يُحيي. ولن تعرف المسيح معطي الحياة معرفة حقه".

ما أعظم حب المسيح لنا! فإنه يعرف مؤامرات الشرير ويعلم كيف يستعملها للخير. فهو يستخرج من المرّ حلاوة ويحوّل حقد الشيطان إلى حبّ لله. وبهذا ندرك أنّ الشيطان، مهما فعل، فسينتهي أخيراً إلى هدم ذاته. ولا ريب أنه يحارب الناس. أما الله فيدعه حراً لأنه شخص وهو بالتالي ذو حرية يحترمها الله، إلا أنّ الله بحبه وإحسانه للبشر يحدّ من عمل الشيطان الهدَّام.

سمعتُ ذات يوم ناسكاً يقول إنّ الله يحوّل بحبّه القليلَ من الكبرياء إلى اتضاع يجذب نعمته الإلهية. وهذا يعني أنّ المسيحي إذا تكبّر حلّ به السقوط تواً. فإذا تقبّل النعمة الإلهية بعد السقوط تاب واتضع أكثر. وهكذا يطهّر ذاته تدريجاً من خطيئة الكبرياء الشيطانية الدنسة. وبهذا يمكننا القول من جديد إنّ الشيطان يهدم ذاته ويتلاشى.

بعد هذا وقف الشيخ وقال:

– لقد حانت ساعة صلاة المساء. فهيَّا بنا لنتلو الصلاة بالحبل المعقود(كومبو سيخني) اذهبْ إلى تلك الغرفة وصلّ مردّداً الصلاة إلى أن أدعوك لكي نستأنف الحديث. يجب ألاَّ ننسى "صلاتنا "الصغيرة أبداً.

دخلتُ القلاية التي أشار إليها. أصعدني إلى مكان عال جداً. وقد أحسن صنعاً حين كفَّ عن المسير فوجدتُ الفرصة مؤاتية لي لكي أستريح. وكانت القلاية عبارة عن غرفة ضيقة جداً كسائر قلالي الجبل المقدّس (آثوس). وكان في داخلها سرير صغير خشن مصنوع من بعض الألواح الخشبية المستندة إلى رجلين خشبيتين. وكان فوق الألواح غطاء (بطانيَّة). وليس فيها شيء يذكّرنا بالعالم. وكان في داخل القلاية أيضاً طاولة صغيرة عليها قنديل كاز اسودّتْ بلورته، ومقعد صغير يستخدمه الراهب أثناء الصلوات الليلية المتواصلة لفترة طويلة. وقد عُلّقتْ على الجدار أيقونة للسيد المسيح وإلى جانبها أيقونة للسيدة والدة الإله التي يحبها رهبان الجبل المقدس بنوع خاص. وهي قائدة الجبل وحاميته وسيّدته.

ولا بد أن نذكر أنّ من المتممات الضرورية للقلاية بعضَ العناكب وبخاصة في زوايا الغرفة. وأنَّى للشيخ أن يجد ساعة من الوقت يخصّصها للتنظيف الدقيق؟

وما كدتُ أدخل القلاية وأجيل فيها نظري بسرعة حتى سقطتُ على أرضها فأحدث سقوطي دوياً. وضممتُ كفيَّ وأسندتهما إلى أرض القلاية، ووضعتُ رأسي فوقهما. وأخذتُ أردّد ‘‘صلاة يسوع’’ تارة بتمتمة وطوراً بقوة. وكنت أردّد ‘‘الصلاة’’كاملة، مع التشديد أحياناً على كلمة‘‘يا ربي’’ وعلى اسم يسوع أحياناً أخرى، وعلى لفظ المسيح، أو على عبارة‘‘ارحمني ’’ وذلك بقصد تركيز عقلي جيّداً في ‘‘الصلاة’’...

لم أعرف كم مضى عليَّ من الوقت وأنا منطرح على أرض القلاية. فإنّ الزمن يتوقف في هذه الساعات... كنت أتأمل في خطيئتي، وفي حضوري بين آباء قديسين متألهين، فأبكي. وقلتُ من أعماق قلبي قولاً للقديس يوحنا الذهبي الفم، الذي أساء فهمه البعض ظانين أنه أراد به أن لا يسكن الرهبان الأديرة: ‘‘طوبى لكواكب المسكونة، لأنّ غرفتهم نقية خالية من كل ضجة، ونفسهم مُصفّاة من كل هوى، ومتحرّرة من كل مرض. وهي رقيقة، خفيفة، وأنقى بكثير من هواء عليل. أما العمل عندهم فهو ما كان لآدم في البدء قبل الخطيئة، يوم كان متسربلاً المجد ويكلّم الله بدالّة، مقيماً في ذلك المكان المفعم غبطة’’.

بعد مرور وقت غير قليل سمعتُ صوت المريد يخبرني أن الشيخ ينتظرني لاستئناف الحديث. فعدتُ من جديد إلى الناسك المعتزل وفي نفسي مزيج من آيات الفرح والحزن بسبب قطع صلاتي.

سألني: كيف بدا لك هذا التوقُّف؟

فقلتُ: لا أستطيع أن أكلّمكم وأن أجيب على سؤالكم... (من يدري! فلعله كان يصلي من أجلي فقط إبَّان وجودي في القلاية. فحدث في نفسي من أثر ذلك ما بدا عليّ من انسحاق).

قلتُ بعد لحظات:

– لقد أحسستُ بصفاء يهيمن على نفسي، وبشعور من الأسى بسبب الخطيئة. وقد امتلأتُ في الوقت عينه فرحاً لأجل محبة يسوعي. أجل إنّ يسوع يحبني حباً جماً، فوق ما كنت أظن. ويخيل إليّ أنكم تشعرون دائماً بمثل هذا، وقد يكون نتيجة افتقاد نعمة المسيح، التي تأتي بقوة بعد سنوات طويلة من الصعود إلى جبل يسوع، وبعد ترديد"الصلاة". الحاملة الحياة، ترديداً متواصلاً.

– إنّ الأمر لكذلك. لكنّ ثمرات"الصلاة"، هي من الكثرة بحيث يتعذّر على المرء إحصاؤها كلّها. فإنّ"الصلاة" أشبه بشجرة مثقلة بثمار في غاية من الحلاوة، والواحدة فيها خير من الأخرى.

– أعطني أنا المحروم من النعمة الإلهية بعض هذه الثمرات من ثمار"البرية الممتلئة نعمة"... ، قم من أجلي بعمل قطاف روحي، لكي أعرفها على الأقل...

6– ثمار ((الصلاة))

– سأذكر لك بعض هذه الأثمار ما دمتَ ترغب في الاستماع إليّ . إنّ "الصلاة" هي في البدء خبز يسند قلب المجاهد ثم تصير زيتاً يحلّي قلبه، وبعدها تُمسي خمرة.. "تجذبه".. فيحدث الانجذاب والإتحاد بالله. وللمزيد من التحديد أقول إنّ العطية الأولى التي يعطيها المسيحُ للإنسان المصلّي هي معرفة يقينية بأنه في حال خطيئة، فيكفُّ عن الاعتقاد بأنه صالح ويعتبر نفسه "رجسا الخراب فيما هو واقف في مكان مقدّس". وتضرب حفَّارة النعمة عمق النفس وتحفره فما أكثر الأقذار في داخلنا! إنّ نفسنا لنتنة!

يأتي البعض إلى قلايتي أحياناً وهم منتنون خبثتْ رائحتهم... الصادرة عن نجاسات داخلية..أجل، إنّ هذه تكون مجهولة من قبل، لكنّ المجاهد يكتشفها الآن"بالصلاة" وتكون نتيجة هذا الاكتشاف أنه

يعتبر نفسه أقل جميع الناس وأنّ الجحيم هي مثواه الأبدي فيشرع في البكاء ندماً. أجل إنه يذرف الدمع هتوناً على ذاته المائتة. وهل يبكي المرء على ميت في بيت جاره ولا يبكي على ميت في بيته هو؟

هذا ما يحدث للمجاهد في ''الصلاة''. فهو لا يرى خطيئة الآخرين وإنما يرى ما حل به نفسه من إماتة، فتمسي عيناه ينبوع دموع تصدر عن قلب عصره العذاب. وهو يبكي كما يبكي المحكوم عليه، ويصرخ في الوقت عينه بحرارة ''ارحمني''، ''أرحمني''، ''أرحمني''... بهذه الدموع- كما يُنقّي الماء لأشياء الموسَّخة، وكما يصَفّي المطر السماء من الغيوم ويُنظّف الأرض من الأقذار. فليست هذه الدموع إلاَّ ماء المعمودية الثانية. فالصلاة إذاً تأتي بثمرة التطهير الكلية الحلاوة.

- أيَطْهرُ المرء تطهيراً تاماً إذا افتقدته النعمة الإلهية؟

- لا يطهر تماماً ، إنما يجري تطهره بصورة دائمة، لأنّ التطهير ''لا ينتهي''. يذكر القديس يوحنا السلّمي قولاً سمعه من راهب عديم الهوى جاء فيه: ''هذا هو كمال الكاملين، كمال لا ينتهي''. فبقدر ما يبكي المرء يزداد طهراً. وكلما كثرتْ تنقيته اشتدّتْ رؤيته طبقات الخطيئة السفلى، فيشعر من جديد بالحاجة إلى البكاء. وهكذا دواليك..وقد أحسن القديس سمعان اللاهوتي شرح هذا بقوله: ''إنّ هؤلاء يطهّرون النفس بأدعية متواصلة، وأصوات لا يُنطق بها، وبانهيار دموع. وحين يراها هؤلاء وهي تتطهَّر تتملّكهم نار الشوق، ونار الرغبة في أن يروها مطهَّرة تطهيراَ كاملاً. لكنهم ما داموا عاجزين عن العثور على النور مكتملاً يكون التطهّر عندهم غير منته. فإني مهما بلغتُ، أنا الشقي، من التطهّر والاستنارة ومهما زاد الروح الذي ينقّيني وضوحاً أمام عيني فما ذلك سوى بدء لي في التطهّر والرؤية. فمن يستطيع إذاً أن يعثر على مكان وسط أو نهاية في عمق غير محدود، وفي علوّ غير قابل للقياس؟''

وهذا يعني —كما تفهمون يا أبتِ — أنّ الإنسان يتكمّل ويتطهَّر باضطّراد. فيتنقّى أولاً الجانب الانفعالي في النفس (الجانب الغضبي- الشهوات- الرغبات)، ثم يتلوه الجانب العقلي في النفس.

ينعتق المؤمن من الأهواء الجسدية (الجانب الشهواني) ثم من أهواء البغض، والغضب، والحقد(الجانب الغضبي) لكنّ هذا يتمّ بالإكثار من الصلاة وبمجاهدة أشدّ. ومتى تمكّن المجاهد من الانعتاق من الغضب والحقد كان ذلك دليلاً بيّناً على أنّ الجانب الانفعالي في نفسه قد تطهَّر تقريباً. ثم تتبع هذا حرب تنحصر كلّها في الجانب العقليّ. فيحارب المجاهد الكبرياء وحبّ المجد الفارغ الخ..وكلَّ الهواجس الباطلة.

وتلازم هذه الحرب المؤمن حتى نهاية حياته. إلاَّ أنّ هذه المسيرة كلّها، مسيرة التطهير، تتمّ بمساعدة النعمة الإلهية وفعلها، بقصد أن يصير المؤمن إناء يتّسع للنعمة الغزيرة. وفي هذا يقول القديس سمعان اللاهوتي أيضاً:

''فلن يستطيع الإنسان التغلّب على الأهواء ما لم يكن هذا (النور) إلى جانبه للمساعدة. وهو لا يطرد الأهواء كلّها (من النفس) دفعه واحدة. فإنّ الإنسان النفساني لا يصير جديراً بتقبُّل الروح كله فجأة، ولا يصير عديم الهوى إلاّ متى فعل بقدر المستطاع كلَّ شيء: من عري، وعدم سعي، وانفصال عما يخصّه، وتجرُّد من الإرادة الذاتية، وإنكار للعالم، وتحمّل للتجارب، وصلاة وحزن، وفقر واتضاع. وذلك بقدر استطاعته...''

– وكيف يدرك الإنسان أنّ نفسه آخذة في التطهُّر؟ أجاب الناسك الحكيم:

– هذا أمر سهل ويمكن إدراكه بسرعة. يستعمل إيسيخيوس الكاهن صورة لبيان ذلك. فهو يقول: ''كما أنّ الأطعمة التي تحمل المرض إذا دخلت المعدة أزعجت وآلمت، لكنها تخرج منها بتناول الدواء فتستريح، ويشعر المرء بالارتياح، هكذا يكون الأمر في الحياة الروحية. فإنّ الإنسان حين يتلقّى أفكاراً شريرة يشعر بالمرارة وبثقلها، وهذا أمر طبيعي. غير أنه بواسطة ''الصلاة'' يطردها نهائياً متقيئاً بسهولة. ويشعر بعدها بالتطهر إلى حد بعيد. ويحسُّ المصلي بالتطهّر، لأنّ الجراح الداخلية الناشئة عن الأهواء يتوقف نزفها فوراً.

نقرأ في إنجيل لوقا عن المرأة النازفة الدم ''التي جاءت من خلف يسوع ومسَّت هدب ثوبه وللحال توقف نزف دمها'' (لوقا 8 :44) فأنّ اقتراب المرء من يسوع المسيح يُشفَ فوراً (يتوقف نزف الدم) أي يتوقف نزف دم الأهواء. أريد القول أيضاً إنّ الصور والرسوم والأشخاص الذين كانوا يعثروننا قبلاً يكفّون عن إعثارنا. وهذا يعني يا أبتِ أنه إذا أزعجنا بعض الأشخاص أو الأشياء كان ذلك دليلاً على أننا مجروحون، وقد جرحنا الشيطان بهجماته والعثرة قائمة في داخلنا. إلاَّ أنّ المرء بعد التطهرّ بمساعدة''الصلاة'' يرى جميع الناس وكل الأشياء كائنات خلقها الله، لا بل أنه يعتبر الأشخاص بنوع أخصّ صوراً لله المحب.

فمن كان متسربلاً نعمة المسيح يرى الآخرين أيضاً متشحين ولو كانوا عراة جسدياً. أما من لم يحظَ بالنعمة الإلهية فإنه ينظر إلى اللابسين جسدياً فيحسبهم عراة.

وددتُ أيها الحبيب عند هذه النقطة أن أقرأ لك من أقوال القديس سمعان اللاهوتي الجديد.

قلتُ: إنه في الحقيقة لاهوتيّ وقد قرأتُ بعض كتبه فتحمست!

– أنصحك بقراءة كتبه كلّها. لأنك بذلك تستطيع أن تقتني تذوّقاً للثيولوجيا الصوفية، الطريق السلبية للاختبار النسكي. يقول هذا الأب معاين الله في إحدى قصائده: ''..إنّ سمعان القديس الورع الأستوذيتي ما كان يستحي أن يرى أعضاء كلّ إنسان ولا أن يشاهدهم عُراة ولا أن يُرى هو أيضاً عارياً . فقد كان له المسيح كله.هو كلّه كان مسيحاً. أعضاؤه كلها، وأعضاء كل شخص آخر، كل واحد بمفرده، والكل معاً كان ينظر إليهم على الدوام فيحسبهم مسيحاً. وكان يبقى بلا حركة، غير متضرّر، وعديم الهوى. فكأنه كان بكامله مسيحاً. وهو يرى جميع المعمدين متشحين بالمسيح بكامله. فإنّ وُجدتَ عارياً وجسد يلامس جسداً وصرتَ مهووساً بالأنثى كحمار أو حصان فلمَ تجرؤ على التطاول على القديس واتهامه زوراً، والتجديف على المسيح المتَّحد فينا المعطي عبيده القديسين موهبة التحرّر من الهوى؟''.

وأضاف الشيخ قائلاً:

– إنّ الإنسان المتحرر من الهوى، الذي تطهَّر بواسطة ''الصلاة'' لا يعثره شيء مما يرى. والشيطان ينهزم في الوقت عينه، وهذا من ثمار الصلاة أيضاً. ينكشف العدو وشباكه بسرعة فيُطرد من النفس بسهولة. ويشعر المجاهد في ''الصلاة''بتأهب الشيطان لمحاربته من جديد، فيتخذ الإجراءات المضادة اللازمة في الوقت المناسب. وهو يرى سهام الشرير تُصوَّب إلى النفس لكنها تنطفئ قبل أن تمسّها.

يقول القديس ذياذوخوس ''إذا ما وصلت السهام إلى موضع ما في الجزء الخارجي للقلب تبدَّد هناك لأنّ نعمة الله تكمن داخل القلب. الأبالسة، النارية، تنطفئ فوراً عند مراكز الإحساس الخارجية في الجسم. لأنّ ندى الروح القدس يهزّ القلب برياح سلامية ويطفئ سهام الشيطان حامل النار، التي ظلت باقية في الهواء...

ويتمّ —كما قلنا سابقاً– توحيد الإنسان بكامله: العقل والرغبة والإرادة، وتتناسق كلها معاً في الله''.

هتفتُ: التطّهر من الهوى. إنه عطية عظمى!

قال: أجل، هذا حقّ إنّ التحرر من الهوى هو عطية النعمة. والتحرر من الهوى يفترض وجود التطهُّر والمحبة. وهو يزيد المحبة صقلاً.

وقديس الله سمعان يساعدنا في فهم هذه النقطة. فإنه يستعمل صورة جميلة فيقول إننا في ليلة صافية لا سحب فيها نشاهد صفحة القمر في السماء متلألئة بالنور الخالص الكلي النقاوة. وكثيراً ما نشاهد حولها هالة من نور. ولنرَ كيف ينسّق القديس بين هذه الصورة وصورة الإنسان المطهَّر تاماً، والمتحرّر من الهوى. فهو يقول إنّ أجساد القديسين هي السماء أما قلبهم حامل اللاهوت فإنه أشبه بصفحة القمر. والحب المقدّس هو النور الفعَّال الكلي القدرة الذي يملأ القلب يومياً بقدر ما أصابه من تطهّر، وتأتي بعد ذلك لحظة يمتلئ فيها القلب بنور الحب الساطع فيصبح بدراً. إلاَّ أنّ هذا النور لا يتناقص مثلما يحدث للقمر لأنه يتغذى بالاجتهاد والجهاد والعمل الصالح..

''...يظل القلب مفعماً كلّه بالنور فيما يغذّى باجتهاد القديسين وإحساناتهم...'' وموهبة التحرر من الهوى (الأباثيا) دائرة ممتلئة كلها بالنور تحيط بالقلب وتصونه سالماً من هجمات الشرير الشرسة. ''إنها تستر(القديسين) على الدوام وتحرسهم وتحفظهم سالمين من كل فكرة شريرة وتصونهم بلا مضرة وأحراراً وتستعيدهم من كل الأعداء. ليس هذا وحسب بل إنها تعمل أيضاً لجعلهم بعيدين عن متناول المضادين..''

ومع أنّ موهبة التحرّر من الهوى ضرورية تماماً إلاَّ أنها ليست عطية ''الصلاة'' الأخيرة كما أنها ليست إمتلاك كل شيء. فإنّ ما يحدث بعد ذلك هو البدء في الصعود نحو الله. ويصف الآباء القديسون هذا الصعود الروحي نحو التأله بأنه تطهُّر واستنارة، وتكمُّل. سأذكر لك نموذجين من الكتاب المقدّس بغية الإيضاح. أولهما حالة صعود موسى النبي إلى جبل سيناء لكي يتسلم الشريعة، والثاني مسيرة الشعب الإسرائيلي نحو أرض الميعاد.

يشرح القديس غريغوريوس أسقف نيصص الحالة الأولى. أما الثانية فيشرحها القديس مكسيموس المعترف.

– إنّ الآباء يحمّسونني على الدوام. فإنهم يفسّرون كلام الله تفسيراً صحيحاً. ولهذا أود سماع شروح الآباء.

– لقد طهَّر العبرانيون أولاً ثيابهم ونقَّوا ذواتهم امتثالاً لأمر الله. ''نقّهم وليغسلوا الثياب، وليكونوا متأهبين في اليوم الثالث''.

وفي اليوم الثالث سمع الشعب كله الأصوات ''وصوت البوق'' ورأى البروق والسحب الضبابية على جبل سيناء. ''كان جبل سيناء يدخّن كله''. وتقدّم الشعب إلى أسفل الجبل. أما موسى النبي فقد دخل وحده في السحاب المنير. ثم وصل بعد ذلك إلى القمة حيث تسلّم ألواح الناموس.

ويشرح القديس غريغوريوس أسقف نيصص هذا، فيقول إنّ الطريق إلى المعرفة الإلهية هي طهارة الجسد والنفس. والمزمع الصعود يجب أن يكون، بقدر المستطاع، نقياً بلا دنس نفساً وجسداً. ويجب أن يغسل ثيابه حسب الوصية الإلهية، لا ثيابه المادية، لأنها ليست عائقاً لمن يريدون التأله، إنما يجب غسل مئزر المشاغل بحسب هذه الحياة، يعني كل أعمال الحياة التي تحيط بنا كالثوب. يجب أن يبعد أيضاً عن الجبل الحيوانات البهم التي لا عقل لها، أي يتخطى ''المعرفة المكتسبة بطريق الحسّ''، أن يتخطَّى كل معرفة تقدمها أدوات الحواس. وعليه أن يتطهّر من كل حركة ''حسّية'' وغير عاقلة، وأن يغسل الذهن، أي أن ينفصل الذهن عن رفيقه أي ''الإحساس'' الملازم له وليجرؤ– بعد أن يتأهب ويستعد ويتطهَّر على هذا المنوال– على الاقتراب من الجبل الموشّح بالضبَّاب.

يضاف إلى هذا أنّ الشعب يصعب عليه صعود الجبل. وبما أنّ الشعب يصعب عليه الاقتراب من الجبل وكان على موسى النبي وحده أن يمضي فيه قدماً، أي كان مدعواً إلى الصعود، يتبيّن من هذا، يا أبتِ، أنّ التطهر كما يبدو هنا هو ضروري مقدّماً ثم يتبعه الصعود من أجل المشاهدة. فإنّ أعظم الخيرات، بناء على ما تقدّم، تأتي بعد التطهُّر. وإنّ هذا التطهُّر شرط ضروري للحصول عليها.

وتحدّث الناسك معاين الله عن النموذج الثاني فقال: لقد كتب القديس مكسيموس المعترف أنّ هناك ثلاث مراحل للصعود السّري نحو الله:

+ الفلسفة العلمية وهي سلبية: (التطهّر من الأهواء) وإيجابية: (اكتساب الفضائل).

+ والمشاهدة الطبيعية هي التي يشاهد إبانها العقل المحض، الطاهر، الخليقة كلها والمعاني الباطنية للأشياء، فيتعرّف على المعنى الروحي للكتب المقدّسة، ويرى الله في الطبيعة ويصلي إليه. ثم تأتي بعدها المرحلة الثالثة والأخيرة هي:

+الثيولوجيا السرّية التي توحّد المؤمن المجاهد بالله. وهذه المراحل الثلاث تتجلى بوضوح في مسيرة الشعب الإسرائيلي.

لقد هرب الإسرائيليون أولاً من عبودية مصر بعد أن عبروا البحر الأحمر الذي غرق فيه الجيش المصري. ثم وصلوا إلى البرية حيث تلقوا بطرق مختلفة عطايا محبة الله للإنسان (المن الماء وسحابة النور والشريعة والنصر على الأعداء). وبعد جهاد دام سنين كثيرة دخلوا أرض الميعاد.

يحدث مثل هذا أيضاً للمجاهد ''بالصلاة''. فإنه يخرج أولاً من عبودية الأهواء (المشاهدة الطبيعية) حيث يتقبّل عطايا محبة الله. وبعد مجاهدة بطولية يصير مستحقاً أرض الميعاد (اليولوجيا السرّية): الإتحاد التام بالله والتنعم بالأزلية الذي يحدث بمشاهدة النور غير المخلوق.

ومما لا ريب فيه أنّ هذه المراحل بحسب رأي الآباء ليست منفصلة عن بعضها انفصالاً تاماً. فإننا بعد وصولنا إلى الرؤية الطبيعية وإلى الثيولوجيا السرّية، لا نترك الرياضة والانسحاق أي الفلسفة العلمية. لأنّ الإنسان وهو يواصل المضيّ صعوداً إلى الأعلى، يتابع جهاده أيضاً لكي لا يخسر الرحمة التي نالها.

وينصح الآباء القديسون قائلين: متى صرتَ جديراً بالمشاهدة الإلهية السامية، وجب عليك أن تزيد من اجتهادك في ممارسة المحبة والإمساك. يقول القديس مكسيموس المعترف: يكون بهاء نفسك عديم الزوال ما دمت تصون الجانب الانفعالي (في النفس) خالياً من الإضراب''.

ومن الضرورة أن يمضي المرء في مسيرته الروحية على الدوام بخوف. فيجب أن يتملكه أولاً خوف من العذاب والعقاب. (وهذا هو الخوف التمهيدي). ثم يعقبه الخوف من فقدان النعمة والسقوط منها (وهذا هو الخوف الكامل). يقول الرسول بولس: ''إعملوا لخلاص ذواتكم بخوف ورعدة''.

– حدّثْني الآن أيها الشيخ عن العطايا التي يتلقّاها المجاهد ''بالصلاة'' بعد تطهّره وقبل أن يتمتّع بالإتحاد التام بالله. وأكمل لي وصف ما ''للصلاة'' من ثمار أخرى.

– يشعر الراهب المجاهد بالتعزية الإلهية في حضور المسيح الذي يشيع هدوءاً عذباً وسلاماً غير متزعزع، واتضاعاً، ومحبة نحو الجميع لا تكلّ. ولا ريب أنّ هذه التعزية الناجمة عن الحضور الإلهي لا يمكن مقارنتها بأي شيء بشري.

لقد عرفتُ ناسكاً مرض مرضاً شديداً فدخل إحدى المستشفيات للمعالجة. وقد أحاطه أطباء بارعون بعنايتهم لتقديرهم الشخصي له. وشفي وشكر أطباءه وعاد إلى قلايته. لكن سرعان ما عاوده المرض. ولم يعرف إخوته الرهبان بما له لأنه كان يعيش منعزلاً في خلوة. فكان يتوجع كثيراً، لكنه كان يشعر بتعزية عميقة لا مثيل لها يفيضها الله عليه ولا يمكن مقارنتها بما بذل الأطباء له من براعة طبّهم وكريم إحسانهم ولا مقارنتها بما تناول من أدوية شافية فعَّالة. وقد أحسَّ براحة لم يسبق له أن أحسّ مثلها من قبل. لهذا يحرص بعض النساك باجتهاد على تحاشي التعزية البشرية (وهذا طبعاً سلوك غريب عن عقلية العالم) وقصدهم من وراء ذلك أن يحسوا بالعذوبة المسكرة والبهجة المقيمة التي تتصف بها التعزية الإلهية...

قلتُ: إنّ هذا لجنيٌ عجيب، ثمر الصلاة العقلية...أكمل يا أبتِ ..أكمل.

– يكتسب الإنسان الغبطة في التجارب التي يحدثها أناس يعيش معهم. فهو يحلّق في أجواء الحياة الروحية الهادئة المتلألئة بالنور، حيث لا تطاله سهام البشر وهو لا يتضايق منها بل إنه لا يشعر بها البتة. وكما أنك لا تستطيع إسقاط طائرة بضربها بالحصى، وهي بدورها لا تشعر بها، كذلك يحدث لهذا الإنسان. فهو لا يتضايق من الافتراء عليه، ولا من الاضطهاد، ولا من الاحتقار، ولا من التهم. فما يحزنه هو سقوط أخيه. ولو نشأ عنده ضيق فإنه يعرف كيف يتخلّص منه.

ومثل هذا ما جاء في كتاب ''الغيرونديكون'' أنّ أحد الشيوخ ذهب إلى الأنبا أخيللاس فوجده يبصق دماً. فسأله: ما هذا يا أبتَ؟..فأجاب الشيخ قائلاً: ما حدث هو كلام قاله أحد الإخوة أحزنني وقد جاهدتُ من أجل الامتناع عن إعلان ما قال وسألتُ الله أن يحرّرني من ذلك الكلام. فتحوُل الكلام صائراً كالدم في فمي وقد بصقته فوجدتُ السكينة ونسيتُ حزني''.

– في الحق إنّ هذه محبة كاملة نحو الأخ، محبة تصفح عن كل شيء، وهو لا يريد حتى تذكّر الكلام. بهذا السلوك نكون قد بلغنا الكمال!

– هذا مؤكد. وهو يتحقّق بصلاة يسوع. فهذه المحبة هي نتيجة الحياة الإختبارية لاتحاد الجنس البشري. وهي ثمرة "للصلاة"، حسنة المذاق. فالإنسان الذي بلغ هذه الحال من التقدّم الروحي لا تتوحد ذاته هو نفسه وحسب بل إنه ليشعر بوحدة الجنس البشري أيضاً.

واستأنف الناسك قائلاً: إنكم تعلمون أنّ وحدة الطبيعة البشرية قد تصدّعت وتفككت فور عصيان آدم. والله من بعد خلقه آدم جبل حواء من جنبه. وقد أفرحه خلق حواء وشعر بأنها له (من جسده) لهذا قال "هذه الآن عظم من عظامي وجسد من جسدي.." (تكوين2: 23). لكنّ آدم بعد سقوطه أجاب على سؤال الله قائلاً "المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلتُ" (تكوين3 : 12). فحواء كانت قبل السقوط عظماً من عظامه. أما بعد السقوط فقد صارت "إمرأة أعطاه الله إياها"!

يتجلّى هنا بوضوح تفكّك الطبيعة البشرية من بعد الخطيئة وقد وضح هذا في ما بعد عند أبناء آدم في كل التاريخ، تاريخ إسرائيل وتاريخ البشرية كلها. وهذا أمر طبيعي لأنّ الإنسان فقد الله فخسر ذاته أيضاً وانفصل عن الناس. وقد تملّكتْ حياته عزلةُ عن الآخرين وعبودية. أما إعادة توحيد الطبيعة فقد حدثتْ "في المسيح". فهو نفسه قد بسط كفّيه ووحّد ما كان من قبل متفرّقاً فصار بإمكانه كل إنسان أن يتّحد به فيحيا وحدة الطبيعة البشرية أيضاً.

الناسك إذاً يكتسب "بالصلاة" حباً عظيماً ليسوع المسيح. وبهذا الحب يتّحد به. ومن الطبيعي بعدها أن يحب ما يحبه الله وأن يريد ما يريده تعالى. والله "يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يُقبلون". وهذا عينه ما يريده مجاهد الصلاة. لذلك يزعجه وجود الشر في العالم ويحزننا كثيراً هلاك الإخوة كجهلهم. وبما أنّ للخطيئة أبعاداً أكليسيولوجية وعالمية تؤثّر في كلّ العالم، كان طبيعياً أن يحيا المصلّي مأساة البشرية كلها، وأن يتألم كثيرا بسببها ويحيا اكتئاب الربّ يسوع في الجشمانية. وينتهي به الحال إلى الكفّ عن الصلاة من أجل نفسه هو لكي يصلّي باستمرار من اجل الآخرين، لكي يأتوا إلى معرفة الله.

إنّ تطهُّره من الأهواء، وحصوله على نعمة الله المحيية، والصلاة من أجل الآخرين بدافع من شعوره بوحدة الجنس البشري كلّه في المسيح يسوع لهو أعظم رسالة دينية. هذه كانت نظرة الآباء القديسين إلى عمل الرسالة الدينية، باعتبارها عَمَلاً لتجديد الكيان البشري وتوحيد الطبيعية. وكل إنسان يطهّر يُمسي عاملاً

صالحاً لأجل المجموع الاجتماعي طالما أننا كلّنا نؤلف جسد المسيح المبارك. (فإنّ فرح أحد الأعضاء فرح معه كل الأعضاء) كما قال الرسول بولس وهذا ما نراه بوضوح في شخص العذراء الفائقة القداسة. فإنها قد امتلأت بالنعمة فأعطت الطبيعة البشرية كلها نعمة وزيّنتها بها. وبما أنها مفعمة نعمة ومطهَّرة تصلي من أجل العالم كله. وبهذا نستطيع القول إنّ السيدة الكلية القداسة تقوم بأداء رسالة دينية كبرى وتفيد الجنس البشري فائدة ناجعة.

وصمت الشيخ برهة ثم استأنف كلامه: لكنه يشعر بوحدة الطبيعة كلّها أيضاً.

– ماذا يعني هذا؟

– إنّ الطبيعة كلها تعترف به. فقد كان آدم قبل سقوطه ملكاً للخليقة كلها وكانت جميع الحيوانات تعترف به ملكاً عليها، ولكن بعد سقوطه تقطّع هذا الرباط أيضاً وبطُل الاعتراف به. وقد حلَّل نيقولا كاباسيلاس هذه الحال بوضوح بقوله: إنّ الإنسان مخلوق على صورة الله. وما هو حسب الصورة الإلهية عند آدم كان المرآة الصافية التي يضفي منها نور الله أشعته على الطبيعة. وكانت الطبيعة كلها مُنارة ما بقيت المرآة غير محطَّمة. ولكن ما كادت هذه المرآة تتحطّم (وتتفتّت) حتى أُسدل على الخليقة كلها فوراً ظلام كثيف. حينذاك ثارت الطبيعة على الإنسان وكفّت عن الاعتراف به وهي تريد ألاَّ تعطيه ثماراً. ولم يعد قادراً على اكتساب قوته إلا بالقلق والعناء. وصارت الحيوانات تخشاه وأخذتْ تعتدي عليه كثيراً.

لكنّ الإنسان حين يتقبل نعمة المسيح''في الروح القدس'' تتوحّد قوى نفسه كلها، ويصير''حسب صورة الله ومتألهاً'' أي أنه يصير نوراً ويُشعُّ أيضاً النعمة الإلهية على الطبيعة غير العاقلة. وفي هذه الحال تعترف به الحيوانات سيّداً لها وتخضع له وتحترمه. وهناك أحوال ليست قليلة عاش فيها الناسك– المنعزل وفي رفقته دببة وحيوانات أخرى متوحشة، يقدّم لها الطعام وهي تخدمه.

وهكذا إذا ما اكتسب النعمة الإلهية''بالصلاة''يصير من جديد ملكاً على الطبيعة حتى أنه يرتقي إلى مرتبة أعلى من المرتبة التي كانت لآدم. لأنّ آدم، كما يقول الآباء كان له ما هو حسب الصورة الإلهية وكان من الواجب عليه أن يصير حسب مثال الله ''وذلك بالطاعة. فما كان متألهاً إنما كانت عنده إمكانية التأله''

أما ممارس الرياضة (الروحية) فإنه يكتسب بمساعدة النعمة الإلهية، وبقدر الإمكان، ما هو"حسب مثال الله" أي(التأله) ولكن بدون أن يدخل في الجوهر الإلهي. وهو يحوز على أفعال الله غير المخلوقة. أذكر لك على سبيل المثال حادثاً يتجلى فيه اعتراف الحيوانات مجدداً بسيادة الإنسان وخضوعها له.

فيما كان شيخي الدائم الذكر يصلي"صلاة يسوع" كانت العصافير البرّية تقف على شباك قلايته وتنقر الزجاج بمناقيرها. حتى ليظن المرء أنّ ذلك من فعل الشيطان لكي يثنيه عن الصلاة. ولكنّ الحقيقة هي أنّ العصافير البرّية كانت تجذبها صلاة الشيخ".

– يا لك من شيخ حكيم. فلقد أرشدني إلى الكمال، إلى غاية الحياة الروحية. وبهذا يصبح المرء ملكاً...

ابتسم الناسك الشيخ ابتسامة خفيفة ثم استأنف الحديث:

– ثمة أمور أخرى أسمى وأرقى. فإنّ المجاهد بعد الجهاد الكثير الذي حدّثتك عنه منذ قليل قد ينتقل إلى حال الإنجذاب، الإنخطاف الإلهي، ويدخل أورشليم الجديدة، أرض الميعاد الجديدة.

في صلاة مساء عيد التجلّي نرنم الطروبارية التالية: "حين شَاهد متقدمو الرسل على الجبل ما لا يُطاق من انبعاث نورك وما يتعذّر الدنو منه في لاهوتك تغيَّروا إلى حال الانجذاب الإلهي".

والانجذاب والمشاهدة مترابطان. وبقولنا الانجذاب لا نعني عدم الحركة وإنما نقصد به حضوراً إلهياً وحركة روحية. فليس هذا سكوناً وحال موت إنما حياة في الله.

يقول الآباء إنه إذا احتل النور الإلهي الإنسان خلال "الصلاة"، كفّ عن تلاوتها بشفتيه. فإنّ الفم واللسان يصمتان، ويكون القلب أيضاً صامتاً. حينذاك يحظى المجاهد بمشاهدة نور ثابور. يشاهد فعل الله، الفعل غير المخلوق، وهو كما يقول غريغوريوس بالاماس"مجد طبيعي لله وشعاع طبيعي للاهوت لا بدء له وجمال لله جوهري، وحسن يفوق الكمال". إنه الأزلية. وهذا نور جبل ثابور الذي رآه التلاميذ، وهو ملكوت الله. إنه الأزلية. وهذا النور في رأي القديس غريغوريوس بالاماس هو "جمال الدهر الآتي "وأقنوم الخيرات المستقبلية "وغاية الكمال في رؤية الله" و"طعام السماويين". وأولئك الذين يصيرون مستحقين مشاهدة النور غير المخلوق هم أنبياء العهد الجديد. فكما أنّ أنبياء العهد القديم كانوا

يتخطّون الزمن ويشاهدون تجسد المسيح في مجيئه الأول، هكذا يتخطى الزمن أيضاً مشاهدو هذا النور ويرون مجد المسيح في ملكوت السماوات.

وصمت الشيخ قليلاً واستنشق الهواء بعمق ثم استأنف حديثه قائلاً: حينذاك يحتل النور الإلهي كيان الإنسان كله، وينير حضور المسيح قلايته. أما هو فينعم بهذا السُّكر الصحوي، ويرى الله غير المنظور. يقول سمعان اللاهوتي الجديد''إنّ الله نور. ورؤيته هي رؤية نور''. وفي رأي بالاماس المحامي عن اللاهجين بالإلهيات ''إنّ الراهب في تلك الساعة يراقب نوراً إلهياً ويا له من مشهد مقدّس مبهج!...''

ويصف مكاريوس خريسوكيفالوس هذه المشاهدة بقوله: ''ما أجمل أن يكون المرءُ مجتمعاً مع المسيح؟ وهل ثمة أعظم من الإشتياق إلى مجده الإلهي؟ فإنه ليس هناك ما هو أحلى من نوره الذي يستمد منه النور كل مصاف الملائكة والبشر، فلا يوجد ما هو أحب من تلك الحياة التي نحيا فيها ونتحرك ونوجد، ولا أعذب من الجمال الحي الباقي، ولا أطرب من البهجة التي لا يُنطق بها، ولا يوجد أعظم من التوق إلى الفرح المقيم الذي لا يزول وإلى الجمال البالغ غاية الجمال، وإلى الغبطة التي لا تحد''.

هذا يعني أنّ الفرح والبهجة يكونان حينئذٍ بلا حدود. ولا يجد المرء كلاماً لوصف هذه الأحوال.

سأذكر لك كيف يصف القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه الحال على وجه التقريب. وأخذ الشيخ أحد الكتب ثم فتحه وقرأ ما يلي:

''إني أجلس على السرير خارج العالم. وفيما أنا في وسط قلايتي أرى الكائن خارج العالم قد حضر فأتكلم معه. وأجرؤ على القول إني أحبه وهو أيضاً يحبني وإني كل وأتغذى جيداً بالمشاهدة وحدها. وأتجاوز السماوات باتحادي به. وقد عرفتُ أنّ هذا حق، ووجوده مؤكّد. وأين يكون الجسد آنئذ؟ لست أعلم. عرفتُ أنّ من لا يُرى يصير لي مرئياً. عرفتُ أنّ المنفصل عن كل خليقة يأخذني في داخله ويُخفيني في أحضانه. فأكون حينذاك خارج كل العالم وقد وأنا أيضاً المائت، الحقير من العالم أشاهد في داخلي مبدع العالم وقد عرفتُ أني لن أموت إذ نلتُ في باطني حياة. والحياة تفيض في داخلي''.

قرأ الشيخ هذه الفقرة بشوق عميق وقد نمّتْ نبرات صوته عن شديد حماسته. ولمعت عيناه. وارتسم على وجهه فرح بعيد عن الوصف، فهزّني صوته المتهدّج والبهجة الروحية التي بدتْ عليه واغرورقت عيناي بالدمع.

وأضاف الشيخ:

–إنّ الحضور الإلهي ينير حينذاك وجه المجاهد، ويدخل مثل موسى النبي في ضباب اللامعرفة، "الضباب المتلألئ بالنور الفائق" فيحصل هكذا على المعرفة التي [لا] تنسى، وعلى العلم الإلهي الذي يعجز البيان عن التعبير عنه.

وعاد الشيخ إلى التوقّف هنيهة. وكنت أراقبه وأنا في حال انجذاب تقريباً وقد ضاق تنفُّسي وكأني أصبتُ بالربو.

– هذه الحلاوة، حلاوة النور، يشعر بها الجسد أيضاً وهو يتغيّر في هذه اللحظات.

– ماذا تعنون بهذا؟

– إنّ الجسد هو أيضاً يتقبّل، بصورة ما، النعمة التي تؤدي فعلها في العقل وينتظم معها فيتلقى شعوراً بالسرّ الذي لا يعبّر عنه، والقائم في النفس، وحينذاك "يخفّ الجسم وتدبّ فيه الحرارة بطريقة غريبة" أي أنه يشعر بحرارة غريبة نتيجة لمشاهدته النور االإلهي ومثله في هذا مثل الشمعة فهي حين تشتعل تمتد الحرارة إلى جسمها فتنار.

– لكن...اسمحوا لي هنا بسؤال قد يكون تجديفاً. لكني سأوجهه إليكم..هل هذا التغيّر الذي يحدث للجسم هو حقيقة واقعية أم مجرّد خيال أو حرارة وهمية؟

– لا، يا أبتِ، إنه حقيقة واقعية. فإنّ الجسد يشترك في كل أحوال النفس. وليس الجسد شراً. ولكنّ الذهنية الجسدية تكون شراً عندها يستعبد الجسد للشيطان. وعدا هذا فإنّ مشاهدة النور هي مشاهدة بالعينين بعد أن أجرت النعمة الإلهية فيهما تغييراً وقوّتهما فصارتا جديرتين برؤية النور غير المخلوق، وفي الكتاب المقدّس أمثلة عديدة تدل على أنّ نعمة الله تمتد من النفس إلى الجسد أيضاً فيشعر بفعل النعمة الإلهية المحيية.

– أتستطيعون أن تذكروا لي بعضها؟

– هناك العديد من الأبيات في مزامير داود تؤيد ذلك. فمثلاً "إنّ قلبي وجسدي قد ابتهجا بالإله الحي(مز83). "وعليه اتّكل قلبي فأُعِنْتُ وأحيي جسدي" (مز27). وفي المزمور118 "ما أعذب أقوالك

في حلقي، أحلى من الشهد في فمي''. وهناك حالة النبي موسى. فإنه حين نزل من سيناء حاملاً الناموس كان وجهه مضيئاً. ''وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولَوْحا الشهادة في يده لم يعلم أنّ جلد وجهه صار يلمع فيما كان الله يتكلم معه. لكنّ هارون وجميع بني إسرائيل رأوا أنّ وجهه كان يلمع ويرسل أشعة نور، فخافوا أن يقتربوا إليه'' (سفر الخروج34: 29- 3.).

وفي حالة استفانوس رئيس الشمامسة بدتْ هذه الظاهرة. فإنهم حين قادرة إلى المجمع ''رأوا وجهه كأنه وجه ملاك'' (أعمال 6: 5). والقديس غريغوريوس بالاماس يرى أنّ الربّ يسوع حين كان يصلي في بستان الجشمانية يعلّم أنّ الحرارة التي أحس بها الجسد قد نشأت فقط عن الصلاة الطويلة إلى الله''.

– أطلب عفوكم يا أبتِ فإني قد أتعبتكم بسؤالي المجدّف، الدنيوي. فنحن لا نستطيع أن نفهم لأننا نعيش في ''العالم''...لكن اسمحوا لي بسؤال آخر. هل يوجد اليوم رهبان يصلّون فيتغيَّرون ويشاهدون النور غير المخلوق؟

ابتسم الشيخ وقال:

– لو توقّف الروح القدس عن العمل في الكنيسة لما بقي لمشاهدي النور غير المخلوق وجود. إنّ الجبل المقدّس (آثوس) يخفي كنوزاً عظيمة. فليس الذين يحاربونه، بأي طريقة كانت، سوى أخصام وأعداء لله. كان بعض الناس في زمن القديس أثناسيوس الكبير ينكرون لاهوت السيد المسيح. وفي عهد القديس غريغوريوس بالاماس كان بعض الناس أيضاً يشكّون في ألوهية الأفعال غير المخلوقة. ونقع اليوم في الخطيئة عينها تقريباً. فنشكّ في حقيقة وجود أشخاص متألهين يشاهدون النور الإلهي. يوجد اليوم رهبان مقدَّسون هم آلهة بحسب النعمة. ويعود الفضل في بقاء الأرض إلى هؤلاء النساك المتألهين. فإنهم ينيرون الأرض الحالية التي أناخت عليها الظلمة بسبب الخطيئة.

– لي سؤال آخر قد بكون صادراً عن عدم تمييز. هل شاهدتَ النور الإلهي أنت أيها الشيخ بالذات؟

ليسمحْ لي قارئ هذا البحث الصغير ألا أصف هذا الموقف المؤثر وما قيل فيه. وقد أردتُ إخفاءه وراء ستار من الصمت. ولعله يعذرني...

توقّف الشيخ طويلاً عن الكلام فساد السكون. إلاَّ أني عدتُ بعد قليل إلى إزعاج الناسك في صمته. فقد كان ذلك ضرورياً لأنّ الوقت ضيق وأنا محتاج إلى المزيد من العلم وقد أردتُ استغلال هذا الأب الشيخ الرائي والإفادة منه بقدر المستطاع، فقلت:

– أسألكم يا أبتِ من جديد أن تغفروا لي، لقد قلتم إنه لا يزال حتى الآن في الجبل المقدّس (آثوس) رهبان يشاهدون النور غير المخلوق. وأعتقد أنّ الراهب نفسه لا بد أن يشاهده مرات عديدة. فهل يكون لمعان هذا النور هو عينه كل مرة يُشاهد فيها؟

– يمكننا القول بوجود نور روحيّ، ونور يراه المرء بعينيه الطبيعيتين بعد أن يحدث فيهما تغيير ويُعَدَّا لرؤيته.

والنور الروحي هو الوصايا، ويتلقاه من يحفظها. ''يا ربّ إنّ شريعتك سراج لرجليّ ونور لسبلي''..إنّ وصايا المسيح هي ''كلام حياة أبدية'' وليست مجرد أوامر خليقة خارجية. والفضائل التي تكتسب في محاولة المرء تطبيق وصايا المسيح هي أنوار. والإيمان نور شأنه شأن الرجاء والمحبة. والله هو النور الحقيقي و''نور العالم''. واسم الله هو المحبة أيضاً. ''إنّ الله محبة''. لهذا نقول إنّ المحبة نور أسطع من سائر الفضائل. والتوبة أيضاً هي نور يضيء في نفس الإنسان ويقوده إلى جرن المعمودية الثانية حيث يُطهّر الشلاَّل الروحي الأعين.

إنّ هذا النور يتمتع به جميع المسيحيين الذين يجاهدون ''الجهاد الحسن'' وبخاصة من ابتغى التطهُّر من الأهواء. وذلك طبعاً يكون بقدر ما يبذل كل واحد منهم من جهد في هذا السبيل.

ويقول القديس غريغوريوس اللاهوتي ''حيث يكون التطهّر فهناك الاستنارة الساطعة والثانية لا تُعطى بدون الأولى''. وبهذا المعنى ينبغي تفسير قول القديس سمعان اللاهوتي الجديد: ما لم ير الإنسان النور(الإلهي) في الحياة الحاضرة فلن يراه في الحياة الأخرى. وقد يحدث أحياناً أن يؤهَّل البعض – بسبب ما يتحلّون به من من نقاوة بالغة وما يظهرون من شديد المجاهدة بالإضافة إلى سبب آخر هو رضى الله بنوع أخصّ – لرؤية النور(الإلهي) بأعينهم الطبيعية، كما رآه تلاميذ السيد المسيح الثلاثة على جبل ثابور. وهنا يوجد فارق. فإنهم عند رؤيتهم النور للمرة الأولى يشاهدونه ''نوراً عظيماً يشيع الفرح في كل شيء داخلهم. غير أنهم في الواقع لا يرون سوى نور خافت. إنما يعتبرونه كما قلت ''نوراً عظيماً'' إذا

ما قيس بالظلمات التي كانوا فيها سابقاً. لكنّ المجاهد يرى النور في المرة الثانية أكثر حيوية لأنه يكون قد توافق وتلاءم مع المشاهدة. وهو بقدر ما يزداد اقتراباً من الجوهر الإلهي تشتد رؤية لما هو غير مرئي من الطبيعة الإلهية وهو ما يسميه الآباء "الضباب" ذا النور الأسمى".

– لم افهم الكثير مما قلتم.

– سأساعد على الفهم بذكر حال النبي موسى مشاهد الله كما يعرضها القديس غريغوريوس أسقف نيصص.

"إنّ موسى النبي عندها دعاه الله على جبل حوريب ليقود الشعب إلى أرض الميعاد، رأى في البدء النور في شكل العليّقة الملتهبة. أما في المرة الثانية، فقد دعاه الله ليدخل في الضباب ويقابله هناك. فالنور أوّلاً ثم الضباب.

ويعلّق القديس غريغوريوس على هذا قائلاً إنّ الإنسان يرى في البدء النور(الإلهي) لأنه كان يعيش قبلاً في الظلمات. لكنه كلما زاد اقتراباً من الجوهر الإلهي مع مرور الزمن زادت رؤية للغمام (بطريقة غير مرئية) وهو ما تتعذَّر رؤية في الجوهر الإلهي. سأقرأ لك نص الأب القديس غريغوريوس بكامله:

"ماذا يعني دخول موسى الغمام ليرى – وهو في هذه الحال – الله فيه؟ وما يرد ذكره الآن يبدو أنه نقيض للظهور الإلهي الأول. فإنّ اللاهوت قد ظهر هناك في نور. أما الآن ففي غمام. نعتقد بأنّ هذا ينسجم والأمور الواقعة تحت نظرنا في تدرّجها الصاعد. ويعلمنا كلام الله بهذه الأمور أنّ معرفة التقوى تصير نوراً في الحال الأولى عند من يكونون فيها. لأنّ ما يُفهم أنه مخالف للتقوى فهو ظلام. والابتعاد عن الظلام يتم بالتمتّع بالنور والبقاء فيه. وإذا تقدّم العقل وصار، بواسطة انتباه أعظم وأكمل ومتزايد على الدوام، قادراً على الاستيعاب العميق للإدراك بحق، زادت رؤية لما هو غير قابل للمشاهدة في الجوهر، وذلك كلما زاد اقتراباً منه بالمشاهدة لأنه يترك كلّ هو ظاهر، لا كلّ ما يدركه الإحساس وحسب، بل ما يظن العقل أنه يراه أيضاً. وهو يتّجه دوماً إلى التعمّق في الباطن إلى ما هو أبعد، حتى يصل بخبرة الذهن الكبيرة إلى ما لا يمكن رؤية ولا إدراكه وهناك يرى الله. وفي هذا يكون الخبر الحق المطلوب رؤية ما هو هذا، في عدم الرؤية لأنّ المطلوب يفوق كل خبر، وكأنه ضباب محاط بعدم الإدراك من كل جانب".

وأضاف قائلاً:

– هذا ما يحدث عادة. الإنسان يتقدّم من مشاهدة نور ضئيل خافت إلى مشاهدة نور(كبير) أسطع، إلى أن يصل الضباب ذي النور الذي يفوق النور، كما يصفه القديس غريغوريوس. ولكي نفهم هذه الجملة ذكرتُ فهما أرثوذكسياً يلزمنا معرفة التعليم الآبائي عن رؤية الضباب ذي النور الفائق الأسمى من النور''. إنّ الله في نظر الآباء القديسين يظهر دائماً كنور ولا يظهر البتة كضباب. غير أنه حين يكون عقل الناسك المجاهد الرائي في حال مشاهدة يرغب في الدخول إلى الجوهر الإلهي أيضاً فيقابل ما يتعذر التغلغل فيه أي الغمام الإلهي ذا النور الأسمى من النور. فالغمام بناء على ما تقدّم ليس ظهور الله كغمام. ولكن هناك عجز الإنسان عن رؤية جوهر الله ''لأنّ الله نور لا يدنى منه''. أي أنّ الغمام الإلهي هو نور وكنه نور لا يراه الإنسان ولا يدنو منه. إنّ الله نور. لقد قال ''أنا نور العالم'' ولم يقل أنا ضباب العالم. وكما يقول القديس ديونيسيوس الأريوباغي ''إنّ الضباب الإلهي هو النور الذي لا يدنى منه ويقال إنّ الله يسكن فيه. وهو يظل غير منظور بسبب سطوعه الفائق. ولا يدنى منه أيضاً بسبب انبعاث نوره المفرط الفائق الجوهر. وكل من يصير مستأهلاً لأنّ يعرف الله ويراه يصل فيه إلى حال لا يرى فيها ولا يعرف...''!

بهذا المعنى إذاً نقول إنّ الضباب هو ما بعد النور لكنّ الآباء كثيراً ما يتحدثون عن الدخول إلى الضباب الإلهي وإلى رؤية إلهية للضباب ذي النور الأسمى. نذكر على سبيل المثال ما قاله القديس غريغوريوس أسقف نيصص عن أخيه القديس باسيليوس الكبير قائلاً: ''إننا كثيراً ما عرفنا أنه كان يصل إلى داخل الضباب، حيث كان الله''. لكنّ الآباء لا يقصدون بهذا، الدخول إلى الجوهر الإلهي، وإنما يريدون به أن ينبهوا إلى تفوّق النور غير المخلوق إزاء ''نور المعرفة الطبيعيَّة''. فإنّ التعليم الأرثوذكسي يقول إنّ البشر يشاركون في التمتع بأفعال الله غير المخلوقة وليس بجوهره الإلهي. قال الرسول بولس''..ملك الملوك وربُّ الأرباب، الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يدنى منه. الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه...'' (تيمو6: 15).

نخلص إلى القول يا أبتِ إنّ الضباب ذا النور الأسمى هو في نظر الآباء نور الجوهر الإلهي الذي لا يُدنى منه. وعندها يتحدثون أيضاً عن قيمة رؤية النور الأسمى للضباب لا يريدون التعبيرعن قيمة الضباب إزاء مشاهدة النور غير المخلوق بل قيمته إزاء نور المعرفة الطبيعية وهي المعرفة العقلية.

– لي سؤال يا أبتِ، هل يتابع الإنسان صلاته متى شاهد النور؟

– لا. يمكننا أن نسمي الصلاة حينذاك صلاة متحوّلة على مشاهدة. فإن الإنسان يشاهد المسيح، وحضوره الإلهي يبهجه. وعندها تستمر الصلاة ولكن بدون كلام. يقول القديس إسحق: إذا كانت الصلاة هي البذار، فإنّ الانجذاب حصادها. وكما يذهل الحصادون إذا رأوا البذرة الصغيرة قد أتت بجني كثير، يذهل النساك من أصحاب الرؤية الإلهية حين يرون حصاد "الصلاة". فإنه وليد الصلاة. والعقل على حد قول القديس إسحق أيضاً، لا يصلّي آنذاك أي صلاة وإنما يصل إلى حال انجذاب في الأمور غير المدركة. وهذه هي جهل أسمى من المعرفة وهي أيضاً "السكون السرّي".المحجوب وخرس الروح. يُسمى الآباء القديسون هذه الحال صلاة لأنها العطية الكبرى التي تُعطى إبّان الصلاة وتُمنح للقديسين. لكنّ الإنسان يجهل اسمها الحقيقي لأنه يكفّ حينذاك عن الصلاة ويرتفع فوق الأقوال والمعاني. لهذا يسمي كثير من الآباء هذه الحال أسباتاً إلهياً أو أسبات العقل. بمعنى أنه كما كان العبرانيون قد أمروا أن يستريحوا يوم السبت، هكذا هي هذه الحال الروحية. فهي سبتُ نفس إذ تهدأ وتستريح من كل الأعمال.

يقول القديس مكسيموس: "إنّ سبت السبوت هو هدوء روحي للنفس العاقلة، يسترد العقل من كلّ شيء، حتى من الأقوال الأكثر إلهية أيضاً ويوجهه بكامله نحو الله وحده في حال انجذاب عشقي، ويجعله ثابتاً في الله وغير متزعزع، وذلك بواسطة العلم الإلهي السرّي..!" والمرء في هذه اللحظة لا يفعل شيئاً غير البكاء إنه يذرف الدمع هتوناً لا بسبب شعوره بالخطيئة التي كانت تدفعه على البكاء ندماً في البدء وإنما بسبب مشاهدته فعل الله، غير المخلوق. إنه يذرف الآن الدموع، دموعاً مبهجة، تفعم النفس فرحا، دموعاً إلهية، مسرّة. إنها دموع من غير ألم ودموع مرضية للنفس، تندّي القلب وتعزيه. أجل إنها دموع تملأ العينين وتخدش الوجه وتكوّن أنهاراً وقنوات ويكون المرء حينذاك في حال انخطاف. وهو لا يعلم هل هذا الإنخطاف في الجسد أم خارج الجسد وتفعم النفس والجسد بفرح يعجز اللسان عن وصفه.

ويشرح القديس غريغوريوس بالاماس فقرة من كلام القديس غريغوريوس الأريوباغي فيقول إنّ عاشق العيش مع الله حين يفكّ النفس من كل رباط، ويعقد العقل بالصلاة المتواصلة، يرتفع صاعداً إلى السماوات صعوداً لا ينطق به، ويرقى بالسكينة والصمت عن الكلام فوق الأشياء المخلوقة كلها. "....

يربط العقل بالصلاة إلى الله، صلاة غير منقطعة، ومتى وصل بكل ذاته، بواسطة "الصلاة"، إلى صعود جديد — لا يُنطق به — إلى السماوات، يجد ما يمكن أن يسمّى بالضباب أي ضباب السكون السرّي الخفيّ، فيرتقي فوق كل المخلوقات مركزاً عليه انتباه العقل على وجه التدقيق، بلذة لا يُنطق بها، وفي فاء كليّ، غاية في البساطة والحلاوة، وسكون وصمت عن الكلام".

حينذاك تصبح الأمور الأرضية كلها كالرماد والزبر، وكأنها نفايات. فلا يعود المرءيشعر باضطراب الهوى، بل ينسى حياته ذاتها، ذلك لأنّ محبة الله أحلى من الحياة ومعرفة الله أعذب من أيّ معرفة أخرى.

فيا له من مهد جميل مقدّس.

يا لها من سرمدية إلهية!

يا له من صفاء عذب!

ويا لها من محبة إلهية!

– أيها الشيخ: أرجو منك أن تكفّ عن الكلام... فلقد أصابني دوار شديد، وإني لأشعر بالإجهاد. وما عدت أستطيع تتبُّع صعودك..إني لا أحتمل....

اقترب مني الشيخ، وأمسك بيدي، وقال لي بصوت ملؤه الحنان غني أفهمك...ولكنك أنت طلبت أن أمضي متقدّماً في الكلام...وهاأنذا قد تكلّمتُ.!.إني أفهم صرختك، طالما أننا نحن أيضاً بعد مشاهدة النور نكون في غاية الإعياء، منهارين تماماً...حين تأتي النعمة تبدو كأنها تحمل سوطاً تجلد به جسدناً الفاني. وإنها لثقل لا يتحمّله جسدنا الضعيف. لهذا يركع ثم يعود تدريجاً إلى حاله الطبيعية.

أعترف بأني كثيراً ما كنتُ أشعر بعد خدمة القداس الإلهي بالانهيار وبالحاجة الماسة إلى الراحة، وحينذاك فقط يبدأ الجسم في استرداد قواه تدريجاً وهو أشبه بعشب تدوسه بقدمك فينحني، ثم لا يلبث أن يعود فيرتفع شيئاً فشيئاً إلى حاله السابقة ولو كنا رأينا النعمة الإلهية بكاملها لمتنا! إلاَّ أنّ محبة الله تدبّر الأمور كلها!.

سكتنا وتوقفنا عن الكلام.. وكان الصمت يلف أرجاء المنطقة، فلا يقطعه سوى صوت أحد المريدين بين وقت وآخر وهو يردد بشفتيه صلاة يسوع، في حديقة هذا الكوخ فيما كان يكنس الأرض. وكنت

أتنفَّس بعمق. وكان قلبي ريع النبض حتى ليكاد أن ينفجر...واستولت عليَّ حّمى، فقد اقتربتُ من قدس أقداس الثيولوجيا السّرية..من الأقداس التي لا يقترب منها غير المكرَّسين (المطّلعين على السر).

وهناك من بعيد، في البحر، كان قرص الشمس قد غاص في الماء فبدا البحر من الكوخ موشًّى بالذهب. ورأيتُ من شباك القلاية الكبير قطيعاً من الدلفين يلهو قافزاً فوق سطح الماء المذهّب وغائصاً فيه (وظهور الدلفين في البحر بالقرب من جبل آثوس أمر عادي). قلت في نفسي إنّ هؤلاء الرهبان عشاق السماء أشبه بالدلفين، فإنهم يعيشون غائصين في ماء النعمة، ولا يخرجون منها لاَّ قليلاً، لكي يشعرونا بوجودها وحسب، ثم يعودون إلى الغوص من جديد إلى ''مشاهدة'' الله.

كان القديس سمعان المستنير بالله يعيش داخل نور ثابور غير المخلوق، لذلك يغبط عشاق الله قائلاً ''طوبى للذين اتشحوا الآن بنوره، لأنهم قد تسربلوا ثوب العرس، الذين لن يُقَّيدوا بأيديهم أو بأرجلهم ولن يطرحوا في النار الأبدية...

'' طوبى للذين أضاءوا من الآن النور في قلبهم وحافظوا عليه بلا انطفاء، فإنهم عند الخروج من الحياة سيستقبلون العريس فرحين، ويدخلون معه على العرس حاملين المصابيح...

''طوبى للذين دنوا من النور الإلهي وولجوا إلى داخله فصاروا بكاملهم نوراً وتلاحموا به لأنهم خلعوا الثوب البالي كلّياً ولن يذرفوا فيما بعد دموعاً مُرَّة ... ''طوبى لذلك الراهب الذي يمثل أمام الله في ''الصلاة''، فيرى الله ويراه الله ويشعر بأنه قد أمسى خارج العالم، وأنه كائن في الله وحده، ولا يستطيع أن يعلم هل حدث هذا بالجسد أم خارج الجسد، لأنه سيسمع كلمات لا يُنطق بها وليس في قدرة إنسان أن يتحدّث عنها، وسيرى ما لم تره عين، ولا سمعتْ به أذن، ولا خطر على قلب إنساني لحمي...

''طوبى لمن شاهد نور العالم متَّخذاً شكلاً في ذاته.لأنه سيعتبر أُماً للمسيح بما أنه يكون حائزاً على المسيح كجنين. وقد أعلن الرب نفسه هذا وهو لا يكذب''.

لقد كنتُ حقاً إلى جانب جبل ملتهب، إلى جانب راهب كان يعيش واقع الحياة السماوية بداء من هذه الحياة الأرضية. وفي الخارج ساد سكون في الطبيعة، أما نفسي فقد غمرها الهدوء. إنّ الله... الفردوس... خارج الزمن أيضاً. وهو قريب منّا جداً. إنه داخلنا، يقطع الزمن والتاريخ.

قال.... لنتوقّفْ عن الحديث... هلمَ بنا نقضِ بعض الوقت خارجاً...

قلت: لا... لا... إني أريد أن أتعلَّم أموراً أخرى. فقد قلتم إنّ'' الصلاة'' علم، جامعة بكاملها. وإني لأرغب رغبة ملحة أن تجعلوني في هذا المساء عالماً!!.

7- أخطاء أثناء ((الصلاة)) ومجابهتها

- إنك تطلب الكثير. لا يمكن أن يصير المرء عالم ''صلاة'' ما لم يجاهد هو شخصياً فيبدأ هذا العمل العقلي بنفسه. ومهما قال الآخرون له إلا مجرد مدخل يفتح له الشهية الروحية. وقد يكون من الواجب، تكملة لأفكاري عن ''الصلاة''،أن أتحدث قليلاً أيضاً عن الأخطار والأخطاء التي قد تنشأ إبَّان السير فيها.

قلت: هذه حق. فقد تكلّمنا سابقاً عن الرهبان إنهم يتحاشون نزول العقل مباشرة إلى القلب ويستعملون وسائل متنوعة للحيلولة دون ذلك تجنباً لنشوء أخطار، فما هذه الأخطار وهذه الأخطاء؟

- يبدأ الخطأ من فكرة وجوب حصوله على النعمة الإلهية في فترة زمنية قصيرة. يمارس كثيرون عمل ''الصلاة'' المقدّس، ويريدون أن يدخلوا في ''مشاهدة'' النور في وقت قريب. وبما أنّ هذا لا يمكن أن يتم فوراً عند الجميع، يقلقون ويشعرون بالخيبة.

من اللازم أن يتخذ المجاهد قراره، أن يجاهد طوال سنين كثيرة. فإن الله لا يجبر إراداتنا، ذلك لأننا أشخاص وبالتالي أحرار كما يجب علينا نحن أيضاً ألاّ نعتدي على حرية الله لأنه شخص أي لندعْه يأتي إلينا متى شاء وارتضى.

وتوقّف الشيخ قليلاً ثم استأنف الكلام قائلاً:

- نرتكب خطأ آخر إذا أعطينا أهمية كبرى للطرق النفسية الفنِّية. فما هذه الطرق (من شهيق أو زفير أو نبض قلب الخ) سوى وسائل مساعدة لكي نتمكن من ضبط الذهن وتخليصه من عناصر غريبة. أريد أن أقول إنه ليست لهذه الطرق قوة سحرية. غير أنها مفيدة لكي نتحاشى بها تشتّت الذهن. ومتى انضبط العقل وعاد بسهولة إلى ذاته وجب التخلي عن كل الوسائل المساعدة.

- وهل هناك أخطاء أخرى؟

– بالتأكيد. هناك أخطاء حين نقوم بالقفز في مسيرة الصلاة لقد ذكرنا قليل أنّ هناك مراحل تطوّر مختلفة لخصّناها في خمس مراحل.أولاها أن نتلو ''الصلاة'' بالشفتين. ثانيتها أن نحفظ ذكر يسوع في العقل وبعدها ينزل وحده إلى القلب. لكنّ البعض يبدأون فوراً من المرحلة الثانية ولا يحصلون على أشياء كثيرة. وآخرون ينتقلون من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثالثة ويحاولون ذلك على الأكثر بالتنفس، وهذا خطر لأنه قد يؤدي –كما قلتُ سابقاً– على وجع في القلب لأسباب طبيعية فيكون سبباً لإيقاف ''الصلاة''. ومن المؤكد أنّ هذا لا يكون مرضاً غير أنه على كل حال قد يؤدي إلى إيقاف هذا العمل المقدّس. وأضاف. قد تنشأ أيضاً بعض المشكلات حول الدموع.

– ماذا تعنون بهذا؟

– قلنا سابقاً إنَّ العينين تُبلَّلان بالدمع، ثم ينهمر هتوناً فيما يبقى الدعاء في العقل. لكنّ هذا لا يكون ضرورياً بصورة دائمة. فإنّ الصلاة يمكن ان تسير سيراً حسناً بدون الدموع. فلا لزوم للشعور بالخيبة في حال عدم وجود الدموع. وستذرف تلقائياً إن سمح الله بذلك. وحتى إذا غرقنا في فيض من الدموع فينبغي ألاّ نعيرها التفاتاً. ولا لزوم لشرح هذه الأحوال لآخرين، والخبرة النسكية تقول إننا حين نذكر هذه الأحوال للآخرين تتوقّف فوراً ثم تتأخر في العودة.

يكفي أن أنبّه إلى أننا إذا عرفنا مراحل الصلاة العقلية وجب علينا تحاشي التفكير في أية مرحلة نحن موجودون. وعلينا أن نكمل المسيرة بتواضع. وعدا هذا فإنّ الكبرياء في الصلاة حماقة وأظنني قد قلتُ هذا من قبل. أجل إنها لحماقة. والإنسان في مثل هذه الحال يشبه مستعطياً يطلب قطعة من الخز ثم تكبَّر لأنه حصل عليها. وما هذا إلاّ حماقة وسقوط.

– أرى الاتضاع يلعب هنا أيضاً دوراً هاماً.

– هنا وفي كل مكان. فإن القديس باسيليوس يقول إنّ التواضع خزانة جميع الفضائل. فهو يخفي الفضائل كلها داخله وأخيراً هو أيضاً. وفي الحياة الروحية إجمالاً ينبغي تحاشي الكبرياء باجتهاد، وبخاصة إذا اتخذتْ مظهر حب مجد فارغ.ولا ريب أنكم

تعلمون أنّ حب المجد الفارغ يمكن أن يظهر في كل فضيلة سواء في الكلام، أو الصمت ، أو الصوم، أو السهر لله وحتى في ''الصلاة'' أيضاً وفي الهدوء وطول الأناة ويقول الآباء نّ حب المجد الفارغ أشبه

بالخائن الذي يفتح أبواب المدينة خفية ليدخلها العدو. حينذاك يقتحمها ويحتلُّها مهما كانت حسناتها ومهما بلغت قوة دفاعها من دقة التنظيم والشدة والمنعة. ويحدث هذا عينه في الحياة الروحية لأنّ حب المجد الفارغ يسلّمنا للشرير مهما كان لنا من الفضائل ومهما بلغت قدرتنا من الشدة. وينصح الآباء القديسون بأن لا يتولى المرء عملاً يؤدي به إلى حب المجد الفارغ.

–إني لم أفهم هذا جيداً. فهل تتكرمون عليّ بمزيد من الشرح؟

– لنعدْ على موضوع الصلاة... ينبغي على المؤمن أن لا يفرط في عمل الصلاة، لأنّ إفراطه يؤكد بأنّ الشيطان يجذبه. وحينذاك يكون كل ما يفعله فوق طاقته من فعل الشيطان وقدرته، فيما يجرّه الشيطان ثم يتركه ويدفعه في الوقت عينه من الخلف فيسقط إلى عمق بعيد الأغوار ويدمَّر بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

– وكيف يمكن تجنّب هذا السقوط الرهيب؟

– الحزن والطاعة هما طريق الخلاص. يجب أن تُربط الصلاة بالحزن برباط وثيق لأنّ الشيطان إذا رأى شخصاً يسلك بحزن أخلى المكان وهرب، ذلك لأنه يخاف من الاتضاع الذي ينشأ عن الحزن.

يقول القديس غريغوريوس السينائي: ''لهذا فإنّ الحزن هو أعظم سلاح يحمله المرء في الصلاة لكي لا يسقط في التكبّر بسبب فرح الصلاة ولكنه إذا اختار لنفسه الفرح المقرون بالحزن، حفظها بدون ضرر''. فمن الضروري ملازمة الحزن والشعور بحال الخطيئة للصلاة الخالصة في مسيرتها. وعلى المجاهد أن يركّز عقله في التفكير بالجحيم بدون يأس. ومن جهة أخرى فإنّ الشعور بالخطيئة وبعدم القيمة والرجاء بيسوع المحب البشر ميزة تتميّز بها الأرثوذكسية وهي ميزة أساسية أيضاً لكل الطروباريات (أناشيد النصر التي ترنمها كنيستنا الأرثوذكسية).

ويجدر الإشارة إلى أنّ الحزن الشديد يتميّز به القليلون. فليس كل الناس قادرين على العيش بهذا الحزن العميق، ولكي يصمدوا فيه يحتاجون إلى قدرة عظيمة وتذوّق سابق للنعمة الإلهية لكي لا يتزعزعوا. إلاّ أننا ينبغي أن نعيش جميعاً هذا الحزن المغبوط، كل منا يقدر استطاعته. كما أنّ الطاعة للشيخ هي أيضاً لازمة، لكي تجري كل أعمالنا –لا يُستثنى منها أي عمل مهما كان بسيطاً– ببركة الشيخ وإرشاد الحكيم. وكذلك ما يتعلّق بمشاهدة النور غير المخلوق.

سألته وأنا مندهش مما قال: ما علاقة الطاعة للشيخ برؤية النور غير المخلوق؟

فقال: إذا مشى المرء وحده بدون التزوّد بالبركة اللازمة يدفعه الشيطان، كما ذكرنا آنفاً، فيما تعتلج في داخله رغبة، لا تهدأ، في رؤية النور غير المخلوق. فيؤمن أنّ هذا كمال يريد الوصول إليه بسرعة...

قلت: أوليس هذا حسناً؟

فقال: لا. ليس هذا حسناً. فإنّ القديس ذياذوخوس ينصح الناسك بأن لا يقضي حياته النسكية راجياً رؤية النور غير المخلوق "لكي لا يجد الشيطان النفس مستعدة للاختطاف من هناك"!

إنّ المرء ينطلق في عمل "الصلاة" مقروناً بحبه لله والطاعة لمشيئته الإلهية المقدّسة. وقد يظهر له الشيطان بصورة ملائكة صالحين يحترمونه لأنّ الشيطان يمكنه أن يتشكّل في صورة ملاك نور، كما يقول الكتاب المقدّس، فيظن المصلّي المسكين أنه وصل إلى عالي درجات الكمال طالما أنه يحيا مع الملائكة ولا يدري أنه في الواقع يتحادث مع الأبالسة!

ويتعرّض الناسك المجاهد لتجربة أخرى حين يوسوس له الأبالسة أثناء الصلاة بهواجس تدفعه إلى الظن بأنه سيرى النور غير المخلوق بعد قليل. إنّ هذه الحال الدقيقة الخطرة لتتطلّب منه الحذر الشديد والانتباه. وعليه أن يكفَّ عن الصلاة فوراً ليؤنّب نفسه تأنيباً عنيفاً قائلاً: أتريد أيها التاعس القذر أن ترى النور غير المخلوق..؟

هذا ما يجب أن يعلمه يا أبتِ لأنه ليس هناك أخطر من فكرة تجعله يظن أنه جدير برؤية النور غير المخلوق. ويمكنه في هذه الحال أن يقول أيضاً: "الويل لي، ماأشقاني! فقد جاء الأبالسة القتلة لكي يقضوا على نفسي ويزيلوها". وحينذاك يختفي الشيطان العدو فوراً. وكثيراً ما يحدث أنّ الشيطان يأتي بنور إلى قلية الراهب لكي يشبع ما في نفسه من حب للمجد ويزيد من سيطرته عليه وأسره له. إلاَّ انّ هذا النور ليس النور غير المخلوق، وإنما هو نور شيطاني مخلوق من صنْع إبليس.

– وكيف يمكن تمييزه عن النور غير المخلوق؟

– هناك طرق كثيرة تساعد الناسك على التمييز بين النورين. سأذكر لك في ما يلي بعض الأحكام المميزة.

أولاً– إذا كان قد وصل بالطاعة إلى مشاهدة النور غير المخلوق، فإنّ طرق الطاعة الكاملة الخالصة هي التي تؤمن وتضمن المشاهدة الصحيحة. والناسك المجاهد ملزم بأن يعرض كل الموضوعات التي لها علاقة بالمشاهدة على شيخه البصير، المتحرِّر من الهوى، وأن يسأله عنها. فلو جالت في فكرة عدم سؤال مرشده الشيخ لكان مصدرها الشيطان، الساعي أبداً إلى تقييد الناسك المجاهد في دياجير الظلام وجعله غارقاً في الضلال ورازحاً في العبودية.

ثانياً– تحدّث الربّ عن الأنبياء الكذبة، فقال ''من ثمارهم تعرفونهم''. وينطبق هذا القول على ما يحدث هنا. فإنّ التمييز بين النور غير المخلوق والنور المخلوق يظهر في ثمار كل منهما. فالنور غير المخلوق يبعث في النفس هدوءاً وصفاء واتضاعاً ومعرفة اختيارية بحال الشقاء. يوم استحق إبراهيم أن يكلّم أَسْمَى ذاته أرضاً ورماداً. ''إني قد شرعتُ أكلّم ربيّ وأنا أرض ورماد'' (تك18: 27) وقال أيوب ''سمعتُك من قبل سمع الأذن، أما الآن فقد رأتك عيني فشكوتُ من شقائي وذبتُ وأشعر أني في الواقع أرض ورماد'' (سفر أيوب في السبعينية 42: 6). والنبي إشعياء رأى مجد الله فهتف قائلاً: ''ويل لي إني هلكتُ، إني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأنّ عينيّ قد رأتا الملك ربَّ الجنود'' (إشعياء6: 5). أما مشاهدة النور الشيطاني فتنشأ عنها الكبرياء وحب المجد الفارغ وفكرة اكتساب الكمال.

يقول القديس غريغوريوس السينائي: ''إعلمْ إذاً أنّ مفاعيل النعمة واضحة، ولا يقدر الشيطان أن يمنحها. فهو لا يهب وداعة ولا تسامحاً ولا اتضاعاً ولا بغضاً للعالم، ولا يحرق لذات وأهواء وهذه كلها مفاعيل النعمة. أما فعل الشيطان فهو هوس بحب المجد الفارغ وكبرياء، وجبن، وكل شر'' ولا يعرف المرء أفعال الشيطان من التكبّر وحسب بل من الاضطراب أيضاً. إنّ فعل الروح القدس يقدّم للنفس والجسد سلاماً وتجرُّداً من الخوف والاضطراب .

والقديس إسحق يبدي رأيه في هذا الموضوع فيقول إنّ التشويش والفوضى مركبة الشيطان لأنه ينقل ما في طبعه إلى الآخرين. والروح القدس هو بطبعه روح سلام ولهذا يعطي السلام. في حين أنّ الشيطان هو بالطبع روح اضطراب والخوف.

ثالثاً– إنّ النفس لا تتقبّل النور الشيطاني فوراً بل تتردّد في قبوله في البدء. في حين أن رؤية النور غير المخلوق تنشئ في النفس منذ البدء تقريباً يقيناً وقبولاً.

يقول القديس غريغوريوس السينائي: يذكر الآباء أنّ كل ما يأتي إلى النفس سواء كان حسياً أو عقلياً، فيتردّد القلب إزاءه ولا يقبله، يكون غير صادر عن الله بل مرسل من قبل العدو''.

وقد يأتي النور غير المخلوق في لحظة لا تنتظرها ولكنك لا ترتاب في صحته.

رابعاً– ثمة فارق في اللون أيضاً. فقد شاهد التلاميذ في جبل ثابور أثناء تجلّي السيد المسيح أنّ وجهه أضاء كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور(متى 17: 2) أما لون النور الشيطاني فهو، على العكس، أحمر بحسب شهادة آباء كثيرين تحققوا من هذا الفارق.

خامساً– هناك الاختلاف في الشكل أيضاً. قال القديس سمعان اللاهوتي الجديد إنّ مشاهدي النور غير المخلوق ''لا يرون شكلاً أو نوعاً أو رسماً بل نوراً لا شكل له''. ولو كان لو شكل لكان قريب الشبه بقرص الشمس. فإنّ الله يظهر كشمس أو كقرص شمس، كروياً ، بارزاً، مشعشعاً بالنور،كشعلة لا شكل لها ولا نوع. على عكس ما يحدث في مشاهدة النور الشيطاني المخلوق. وقد ذكر القديس غريغوريوس هذه الحال فقال إنّ أكيندينوس ذهب ذات يوم إلى الجبل (آثوس) وأقام فيه بضعة أيام وأخبره أنه فيما كان يحاول أن يصلي رأى نور ''ولما انفتح النور بكثافة من الجانب الأسفل بدا له من الداخل وجه بشري'' أي رأى داخل الثغرة وجه إنسان. وإذا لم يكن النور بدون شكل حذّره القديس بالاماس منه لأنه نور شيطاني فقال: ''أما أنا أبديتُ له رأيي بأنّ هذا ضلال مشين وهزء ولهو شيطاني... لا بل إنه على الأكثر فخ خبيث...''.

وأضاف الناسك الواسع الخبرة قائلاً: إنّ الآباء يعلّمون أنه ينبغي ألاّ نقبل كلَّ ما يجري خلال الصلاة... ''إحرصْ على الاحتفاظ بالحسن بعد الامتحان الكثير...'' وعلينا أن نسأل شيخنا في كل هذه الأمور. فإنّ القدرة على التمييز بين الضلال والحق لا تتاح لنا إلاّ بعد جهاد طويل الأمد وعلى قدر النعمة الإلهية التي نحصل عليها. وإنك تكاد ألاّ تفرّق بين النبيذ والخل من حيث المظهر، لكنهما مختلفان في المذاق. هكذا يكتسب المجاهد مع مرور الزمن إمكانية الشعور بالفارق..

كان يتكلّم بلا توقُّف. وكان رأسه منحنياً نحو الأرض. أما أنا فقد كنتُ أصغي إليه مندهشاً. وتمنّيتُ ألاَّ أقطع هذه الأفكار الآبائية الأرثوذكسية. وقد انتشر صفاء وهدوء فيما كان يتحدّث وفي هذا دليل على أنّ تعليمه كان أرثوذكسياً بكامله.

– كل ما قلته لك يتجلى وضوح في محادثة عرفها القديس سمعان اللاهوتي الجديد حيث يظهر الله فيها كنور ينشئ عذوبة. ويسأل المريد شيخه البصير، عارف الله، عنها فيؤكد له أنّ ما رآه هو الله.

سأقرأ لك النص لترى كيف يعرضه هذا الأب الرائي القديس... وأخذ الكتاب وقرأ:

‘‘الله نور ومنظره نور، عندما يراه أحد –حين يكشف ذاته– يرى نوراً فيعجب مما رأى، لكنه لا يعرف فوراً من الظاهر ولا يجرؤ على سؤاله، إذ كيف يسأله من لا يقدر أيٌّ كان على رفع عينيه ليراه؟ وهو ينظر فقط بهلع وخوف شديدين كأنما يصوّب نظره نحو رجليه عارفاً أنّ الذي ظهر أمام وجهه هو شيء بكامله. فإن كان أحدٌ قد شرح له هذه الأمور من قبل بما أنه عارف لله، يذهب إليه ويقول له: ‘‘لقد رأيتُ فيجيبه: ماذا يا بني؟– نوراً– أيها الأب– نوراً حلواً، حلواً. إنّ ذهني لعاجز عن الإفصاح عن شيء.

وفيما يقول هذا يرقص قلبه في الحال وينتفض ويتوقّد شوقاً إلى المرئي ثم يستأنف الكلام بدموع حارة غزيرة قائلاً: لقد ظهر لي أيها الأب ذلك النور فارتفع في الحال بيت قلايتي وولّى العالم على ما أظن، هارباً من وجهه وبقيتُ أنا وحدي موجوداً مع النور وحده ولم أعلم أيها الأب هل الجسد موجوداً هناك، في ذلك الوقت، وأجهل إن كنتُ قد صرتُ أنا خارجه. ولم أدرِ أنّي أرتدي جسداً يحيط بي. ولقد نعمتُ وما زلتُ أنعمُ بالفرح الذي لا يعبَّر عنه وتدفعني محبة وشوق شديد إلى ذرف الدموع أنهاراً وهو ما تراه الآن أيضاً.

فرد عليه قائلاً: ‘‘إنه . يا ولدي’’.

ومع الكلام يراه من جديد ويتطهّر شيئاً فشيئاً تطهُّراً تاماً. وفيما هز يتطهّر يتشجع ويسأله قائلاً: ‘‘هل أنت إلهي؟. فيجيبه قائلاً: نعم ‘‘أنا الله صار إنساناً من أجلك وقد جعلتك كما ترى. وسأجعلك إلهاً’’.

وبعد أن يقضي زمناً حزيناً باكياً وراكعاً أمامه متذللاً يبدأ في معرفة الله قليلاً...’’.

في تلك الساعة ظهر أمامي الراهب المبتدئ– وقد غرتُ منه لأنه وجد مرشداً حكيماً واسع الخبرة– وسأل شيخه قائلاً:

– طلبتم مني أن أسقي الجرة الصغيرة الأخرى؟

فكَّر الشيخ هنيهة ثم التفتَ إليه وقال: أجل اسقها ثم قال لي: هذه هي الطاعة التي حدثتك عنها منذ قليل. فمن يظهرها بسؤاله مرشده عن كل أمر، يتقدّم روحياً، فهو أولاً، لا يترك لمخيلته أن تقدّم له حلولاً. وقد أحسن هذا الراهب صنعاً، لأنه بهذه الطريقة يطهّر ذهنه من الهواجس الثقيلة منها والبسيطة، وينقطع ''للصلاة'' بمزيد من الانتباه. ثانياً: يتعلّم أن يسأل. وفي سؤاله أباه الروحي خلاص. فإنّ التواضع يكون حيث تكون الطاعة، لأنه قاعدة الطاعة.

وهذا يمنع الشيطان، روح التكبّر، ويصده عن الدخول إلى نفس الراهب، ليحدث فيها حالات شاذة ورهيبة. وفي مسيرة هذا العمل إجمالاً لا بد من الطاعة. لكن علينا ألاّ نمضي فيها بلا مرشد لأنّ الشيخ مرشدنا الروحي، هو الذي يعيّن حدود مسيرتنا، وينظّم برنامج حياتنا الروحية، وهو الذي سيأمرنا بوقف أحد الأعمال ويخبرنا هل نتقدّم تقدّماً حسناً مرضياً لله.

والله نفسه موجود في شخص الشيخ. فهو ''رسم المسيح''. ومقامه بالنسبة إلى الرهبان الذين يتولى إرشادهم هو مقام الأسقف في رعيته، والإيغومانس في ديره.

– أإلى هذا الحد يعطي التنسُّك الشيخَ هذه الأهمية؟

– بالتأكيد، فلا يستطيع أحد التقدّم بدون الشيخ. وبدونه أيضاً لا يقدر أن يحيا حياة التقليد الصحيح. فالحياة الروحية تنتقل على غرار الحياة الجسدية من جيل إلى جيل. والشيخ هو حامل التقليد ومالكه، ينقله إلى ولده الروحي، وبلده بحسب المسيح. إنه ينقله إلى من يريد أن يكتسبه. وفي هذا بالذات يمكن معنى الطاعة، الخلاصي. إني أُمارس الطاعة لا لكي أزول من الوجود، وإنما أمارسها لكي أُميت ذاتي الشريرة، وأتحرّر من إرادتي الخاصة وأتقبّل التقليد، ولكي يتصوَّر المسيح فيَّ. إني أطيع لكي أُولد. والطاعة هنا لازمة وضرورية بسبب وجود خطر الضلال. لهذا كتب الأنبا ذوروماوس ''ليس أشقى وأسهل اقتحاماً واحتلالاً ممن ليس لهم من يقودهم في طريق الله''. وقد فسّر الأب نفسه الآية ''حيث لا حكومة يسقطون كالأوراق'' (سفر الأمثال 2: 14) فقال إنّ الورقة تكون في البدء خضراء طريَّة، لكنها بعد وقت تجفّ وتيبس وتسقط وتُحتقر وتُداس. وهذا عينه يحدث لمن ليس له مرشد روحي فإنه سرعان ما ييبس ويقع في متناول الأعداء. إنّ الورقة تكون دائماً في البدء خضراء طرية، ثم تيبس شيئاً

فشيئاً، وتسقط وتحتقر وتداس. هكذا يكون حال الإنسان الذي لا يحكمه أحد. فهو في أول الأمر يكون دائماً حاراً في الصوم والسهر والهدوء والطاعة، وفي بعض الخيرات الأخرى. ولكنّ حرارته تتضاءل وتخمد شيئاً فشيئاً. وبما أنه ليس له من من يحكمه، لكي يثبّته، ويذكي حرارته، لذلك ييبس بدون أن يحسّ ويسقط. وهكذا يمسي في الأعداء فيفعلون به ما يشاؤون".

سأذكر لك مثلاً لتدرك ضرورة وجود الشيخ، تجنُّباً للضلال. فلقد عرفتُ راهباً شعر أثناء الصلاة بألم شديد في قلبه، فأفضى فوراً بأمره إلى شيخه. وقلق الشيخ، ودفعته خبرته، التي يتميّز بها، إلى سؤال الراهب عن موضوع الألم في القلب. فأجاب أنه يشعر بوجع في أسفل القلب من الخارج فأمره الشيخ قائلاً: كُفَّ فوراً عن تلاوة "الصلاة" لمدة أسبوع. لأنه كان ينبغي أن تشعر بالألم في الجانب الأعلى داخل القلب. ذلك لأنّ الأهواء تنشط في الجانب الأسفل من القلب. هذا يؤكد أنّ الشيطان الشرير يُعِدّ لك أمراً. هكذا نجا الراهب من ضلال الشيطان الشرير الذي كان تأثيره قد بدأ يظهر فيه والآباء القديسون يعلّموننا من اختبارهم قائلين "إن رأيت شاباً يصعد إلى السماء بإرادته هو، فاقبض على رجله واجذبه إلى أسفل. لأنّ ذلك لن يفيده".

لقد غبّطتُ ذلك المريد، لتواضعه الجم، ولحصوله على مثل هذا المرشد القديس. وتذكرتُ قصيدة لثيوذوروس الإستوذيتي جاء فيها: إلى مريد... هلمّ إليّ تعال بقلب حار واحنِ كتفيك بطاعة حسنة متواضعاً بكل جوارحك، ومائتاً من حيث الإرادة وكاشفاً عن كل فكرة كامنة في القلب. إن كنتَ تصر على البقاء نهائياً في ميدان الجهاد، فلا تُخِفْكَ بريّة ولا عمود ولا أيُّ نظام لحياة السالكين في طريق الله، وإنك لتعلم كل شيء كما هو مكتوب إلهياً لأنك تسلك طريق أول الشهداء".

قلت:

– إنّ هؤلاء الرهبان المجاهدين في الحياة الروحية سعداء لأنهم طيور مغرّدة، مغبوطة، تنعم بندى الربيع... بالله! أما نحن فلا نستطيع أن نعيش هذه الحالات. وإننا لنبتلع غازات قذارتنا، ونأكل من تراب الأرض. ألا إننا لنأكل ذاتنا عينها.

– ولكنكم تقدرون أنتم أيضاً أن تنعموا بأشعة المجد الإلهي، من انبعاث النور الإلهي. وإن شئتم أن تصيروا لاهوتيين حقيقيين وجب عليكم أن تصلّوا. فإنّ الروح القدس يكون حينذاك حاضراً هناك ويفعل...

"إن كنت لاهوتياً صلّ بحق".

"فإن تصلِّ تكن في الحقيقة لاهوتياً".

سأذكر لك فكرة يمكن أن تساعدنا على الفهم. إنّ المرء بعد ارتكابه خطيئة (جسدية بنوع أخصّ) يقدرُ أن يؤلّف بحوثاً لاهوتية، وأن ينهمك في تحليل كتب للآباء القديسين. غير أنه يعجز ممارسة الصلاة، لأنّ سقوطه في الإثم يُفقده النعمة الإلهية. فالصلاة تتوقّف بدون أن يتوقّف التأليف.

من هذا يُستدلّ على أنّ اللاهوتي الحقيقي هو الذي يحيا "الصلاة" اختبارياً. وبناء على هذا يمكنكم أنتم أيضاً أن تتقبّلوا طَرَقات بهية، يطرقها الإشراق الإلهي الساطع الضياء.

– كيف يتم ذلك؟ إنكم ستساعدونني كثيراً في هذا الموضوع سيكون ما تقولونه درساً عملياً لازماً.

8- ((الصلاة)) لازمة للإكليروس والعلمانيين الذين يعيشون في العالم

ينبغي أن يملأ وعيكم شعور بالحاجة إلى التطهُّر من الأهواء وألاّ تكتفوا بمعالجة الآخرين وإنما يجب أن تؤمنوا أنكم– بل نحن كلنا أيضاً– مفعمون بالأهواء. وكل هوى هو جحيم.

وينبغي أن تعلموا أيضاً –وفقاً لما ذكرنا آنفاً– أنّ "الصلاة" هي الدواء الذي يشفي النفس ويطهّرها لا يعني إنّ "الصلاة" كل شيء، ولكننا نستطيع القول إنها تُطهّر أو تنير بمعنى أنها ترفع الإنسان وتوحّده بالله هو وحده والله هو وحده الذي يطهّر وينير. وهو وحده طبيب النفوس والأجساد وهو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. وكما أنّ الأدوية التي تجعل البصر قادراً على رؤية الأشياء المختلفة تسمى "منيرة" هكذا يحدث إن أردتم التطهّر وتغيير ذاتكم وطلبتم الاستنارة من الله بواسطة "الصلاة".

– أتعتقدون أننا نحن الذين نعمل في العالم نستطيع أن نقوم بهذا العمل الإلهي، عمل الصلاة مثلما يقوم الرهبان؟

– إن لم يكن ذلك على غرارهم تماماً فعلى كل حال يجب عليكم أن تتوخّوا التوصّل إلى الكثير، وأنتم في كل الأحوال قادرون على ذلك. ويجب التمييز بين الصلاة العقلية و"صلاة يسوع". فإنّ الصلاة العقلية التي يقوم بها الرهبان الهدوئيون تتطلّب حياة مجردة من الاهتمام الدنيوي المقلق وثابتة غير مشتتة. يلزمها هدوء وأشياء أخرى كثيرة سبق لنا ذكرها. فإن عجزتم في العالم عن ممارسة الصلاة العقلية ووجدتم ذلك في غاية الصعوبة فما عليكم إلاّ الصلاة في ساعات معيّنة مردّدين "صلاة يسوع" أو تلاوتها كلما أتيحت لكم الفرصة وهذا يفيدكم كثيراً.

– هل تنصحونني بممارسة بعض الطرق العملية النافعة؟

– بالإضافة إلى ما تقومون به من صلوات كنسية طقسية خصِّصوا ساعات خاصة لممارسة "صلاة يسوع" "لترديد اسم يسوع". اشرعوا في التقدّم قليلاً قليلاً بقدر تعطّشكم وإحساسكم بالنعمة. ويمكن أن يقوم المرء بهذه "الصلاة" مدة نصف ساعة في الصباح قبل شروق الشمس، ونصف ساعة في المساء من بعد صلاة النوم وقبل الرقاد. ومن الضروري تخصيص موعد ثابت لهذه الصلاة فلا يلغيه شيء ولو كان القصد من هذا الإلغاء القيام بأعمال صالحة وقد يأتي إليك في تلك الساعة شخص يريد الاعتراف. فإن لم يكن مريضاً، وليس هناك أيّ مانع قاهر يمنع تأجيل الاعتراف إلى موعد آخر، فلا تؤجّل ساعة ممارسة الصلاة حتى لو كان القصد من هذا التأجيل أداء عمل صالح.

وينبغي الشروع في ممارسة "الصلاة" في غرفة هادئة بعيدة عن الضوضاء بالطريقة التي ذكرنا، أي بتأجيج القلب أو بقراءة كتاب لأحد الآباء القديسين يحفّز على الانسحاق والتخشّع ثم نتلو بعد ذلك صلاة يسوع بالشفتين أو بالعقل أو بالقلب بقدر ما بلغنا من تقدّم وسيزداد الوقت المخصَّص "للصلاة" بمرور الزمن ليُسعد القلب فننتظره بمزيد من الشوق والحنين... وأعود إلى القول أيضاً إنّ الإنسان يحتاج إلى قهر نفسه في البدء، لفترة وجيزة، فيجني من ذلك نفعاً عظيماً.

– هل هذه الفترة الوجيزة كافية؟

– ليست كافية. ولكنّ الله يكمل ما في الصلاة من نقص إذا توفَّرت لدى المصلّي الرغبة الصادقة في إتمامها، مع الاتضاع وإذا كان الله يرأف بنا في أحوال سقوطنا، أفما يكون رحيماً إزاء سعينا من اجل

تغيّرنا؟ فإنه سبحانه يكمل كلَّ نقص فينا. وهو يعرف ظروف كلّ منا. فقد تقضون ساعة واحدة في الصلاة تفيض عليكم فيها بركة إلهية أعظم مما يصيبه منها الراهب بعد أن يقضي في الصلاة زمناً أطول. وذلك لأنكم ملزمون بالانشغال في أعمال أخرى.

... لقد أعجبتني هذا الراهب الآثوسي الملاك في الجسد بتمييزه. فهو يميّز كل المسائل بقدرة مدهشة ويرتب القضايا المختلفة ويضع كلاً منها في موضعها.

وأضاف الشيخ قائلا: إنّ الشيطان يأتيكم بالعديد من التجارب خلال الصلاة كما قلتُ لكم آنفاً فتنهال عليكم حوادث متعدّدة لكي تضطركم إلى وقف الصلاة. ولكن عليكم أن تعلموا أنّ الله يسمح بذلك امتحاناً لرغبتكم في ''الصلاة''. فإن كانت هذه الرغبة صادقة وحاولتم مواصلة ''الصلاة'' يأتي الله لمساعدتكم ويذلل أمامكم كل الصعوبات ويزيل كل العراقيل.

– لكني أيها الشيخ لو كنتُ خلال الصلاة أفكّر في شيء آخر كإعداد أو خطبة دينيَّة مثلاً أوفي أداء خدمة لأخ لي بدافع المحبة فهل يجب أن أتخلّى عن هذا العمل الصالح؟

– أجل يجب التخلي عنه. ذلك لأنّ أفكارنا الصالحة التي تتوارد على ذهننا خلال ''الصلاة'' تأتي إلينا أو يستعملها الشيطان لكي لا نصلي. وإذا تبيّن للشيطان أننا مستعدون لترك ''الصلاة'' من أجل هذه الأفكار، أرسل إلينا الكثير مثلها وكذلك في الساعة التي أرجأنا إليها صلاتنا. فإن تمَّ له ذلك نمتنع عن الصلاة وبذلك نفقد السبيل إلى التطهّر... والإخوة هم أيضاً لا ينتفعون منا. فإنّ العظة الدينية مثلاً التي نُحِيَتْ الصلاة من أجل إعدادها لن تكون مثمرة، وبالتالي لن يكون للإخوة أي فائدة.

– يحدث أحياناً أننا نعود إلى قلايتنا بعد فقدان العديد من قوانا، مجهدين وقد دبّ نعاس ثقيل، فلا نقوى على الصلاة ولا على القيام بفرضنا المعتاد، فماذا نعمل في مثل هذه الأحوال؟

– ينبغي عدم إهمال ''الصلاة'' حتى في هذه الأحوال. والقديس سمعان ينصح بألاّ نجعل من خدمتنا للإخوة سبباً يحرمنا من ممارسة ''الصلاة''. وإلاّ فإننا نخسر الكثير وعلينا أن ننأى عن استعمال الأعذار للإمتاع عنها. وهو يقول:

''ينبغي بذل الجهد، بقدر الإمكان، في الخدمة، أما في القلاية فيجب الثبات في ''الصلاة'' بخشوع وانتباه مع دموع متواصلة. فلا تضع في ذهنك فكرة قائلاً إني –وقد تعبتُ اليوم تعباً يفوق الحدّ– سأقلل من تلاوة ''الصلاة''، بسبب الإنهاك الجسدي. فإني أقول لك إن المرء مهما بالغ في قهر ذاته في الخدمة، فإنه في رأيي يخسر شيئاً عظيماً إذا حُرم من ''الصلاة''.. والأمر هو كذلك إنّ نصف ساعة نقضيها في ''الصلاة'' لتضارع ثلاث ساعات نقضيها في نوم يريح من العناء. و''الصلاة'' في صورة متقدّمة تريح الإنسان من التعب وتجلب الصفاء. فهي من هذه الناحية دواء منشّط لجهاز الإنسان.

أجل أيها الأب، لُفّوا كل أعمالكم داخل الغطاء الذهبي ''الصلاة''. فبينما نسلك بمشقات كثيرة، ويتضايق العديد من الإخوة ويستولي عليهم القلق من العمل الروحي فما ذلك إلاَّ لأنهم يعملون كثيراً بالمنطق العقلي لا بالقلب. وهم يتعبون لكي يصلوا إلى التفكير فيما يجب أن يقولوه. أما نحن فإنّ الأفكار تنبع عندنا كالنهر المندفع بقوة بينا نعيش النعمة الإلهية.

وإن كان الإخوة يتخاصمون فيما بينهم ويتعذّر سيادة السلام فيهم، وإن كنا نتضايق من الاعتداءات المتكرّرة علينا ولا نفرح بسببها، حسب وصية المسيح، فما ذلك إلاَّ لعدم ارتباطنا و''الصلاة'' بصلات حسنة.

والقديس نيقوذيموس الأغيوريتي (الآثوسي) يريد أن يُنتخب الأسقف من مصاف الرهبان، متّبعاً بذلك التقليد المرعي طوال قرون. وذلك لأنه سيكون له وجدان رهباني فلا تضايقه الاضطهادات ولا الوشايات ولا الاتهامات ولا الإهانات طالما أنه هو نفسه، أول من يضطهد ذاته الخاطئة ويتهمها. وهكذا يجني كل الثمار التي ذكرنا وأخصها المحبة المرتبطة بالنعمة الإلهية الغزيرة وبموهبة يسميها الآباء موهبة عدم السقوط.

– ماذا تعنون يا أبتِ بالوجدان الرهباني؟

– أعني به طاعة، واتضاعاً، وتوبيخ المرء لذاته، وتعطشاً شديداً إلى ''الصلاة''. طاعة للشيخ وللأب الروحي الخاص، واتضاعاً إزاء الجميع، واتضاعاً بنوع أخصّ مرتبطاً بالجهاد من أجل التطهُّر من الأهواء. وألاّ نعمل أعمالاً كثيرة لأننا في هذا الموضوع قد أثّرتْ فينا للأسف بدع أخرى مختلفة. والعمل الأعظم هو أن نتوخى اكتساب الاتضاع والقداسة. فإنْ اكتسبناهما نكون أغنياء حقاً.

إنّ الكنيسة ليست وزارة شؤون اجتماعية. وإنما هي ''خزانة النعمة الإلهية'' وليس الكهنة موظفين أو ذوي عملٍ اجتماعي رسميّ للعموم. وإنما هم رعاة يرعون شعب الله. وعملهم الرعائي هذا لا يمكن أن يتم إلاّ بالإتضاع والقداسة. وكل عمل اجتماعي لا يتم بالقداسة والاتضاع سرعان ما يزول، في حين يبقى العمل الاجتماعي مهما كان صغيراً ويتّخذ له أبعاداً عظيمة إذا لازمته حياة مفعمة بالقداسة والاتضاع.

ويجب أن يلازم الاتضاع توبيخ المرء لذاته. فعلينا نحن أولاً أن نضع أنفسنا موضع اتهام. وأما احترام الآخرين لنا فيجب أن ننسبها إلى ذاتنا الخاطئة لا إلى الكهنوت فنحظى بسلام ونعمة جزيلين يغدق الله علينا بهما ونتوخّى استبعاد كل سبب يدفعنا إلى كُرْه أخينا.

وينبغي أيضاً أن نُقبل على ''الصلاة'' بمزيد من التعطش فلا نحسبنَّ الصلاة مجرَّد مناسبة بل نعتبرها حياتنا، فنتحرّك داخل الصلاة. وليجرِ خوضنا في علم الإلهيات، وكرازتنا في محيط الصلاة المقدّس. وليكن لنا قانوننا أي فرض صلاتنا نؤديه كل يوم. فلو عاش المرء على هذا النحو لتحقَّق له منه نفع يفوق حدود التصوّر. ومهما صار المرء، سواء قساً أو أسقفاً، فعليه أن يضع نصب عينيه هماً يشغله وهو أن يحذر فقدان صفة الراهب. فقد جاء في كتاب الشيوخ (الغيرونديكون) مايلي:

''رُوي عن الأنبا نيطرا تلميذ الأنبا سلوانوس أنه حين كان يقيم في قلايته في جبل سيناء كان ينظّم حياته بالتناسق مع حاجات جسده. ولما صار أسقفاً لفاران أخذ يقهر ذاته كثيراً ويجهدها في التقشف القاسي. فقال له تلميذه: أيها الأنبا، كنا مقيمين في البرّية فلم تمارس كل هذه الرياضة القاسية. فقال الشيخ: هناك برّية وعوز حيث لا نملك شيئاً، وكنت ملزماً بالعناية بالجسد، لكي لا أمرض، فأطلب ما ليس عندي أما الآن فالعالم موجود والأسباب متوفرة، فإن مرضتُ هنا وجدتُ من يعتني بي. لذلك أمارس كل هذه الرياضات لكي لا أفقد الراهب!''

والحائزون على الوجدان الرهباني، يشعرون عند كل عمل يعملونه، أنهم في حاجة إلى نوال البركة، ويلجأون خلال العمل، أو بعد إنجازه، إلى الأسقف وإلى المرشد الروحي ذي الخبرة، لكي يتفحصه، ويبدي رأيه فيه، ويصلحه عند اللزوم. وهم لا يبتغون مدحاً لما يفعلون. لأنّ من يُكرَم أكثر مما يستحق يخسر كثيراً''.

أجل يا أبتِ، ردّدوا صلاة يسوع في أي مكان تكونون فيه سواء في الطريق أو في السيارة أو في أي مكان آخر، قائلين"يا ربي يسوع المسيح ارحمني" وردّدوا أيضاً "ياوالدة الإله الفائقة القداسة خلّصيني".

ويجب أن تقوموا بخدمة القداس الإلهي باستمرار بعد استعداد كبير وأن تشتركوا في تناول الأسرار الطاهرة. إنّ كل ما في الخليقة يرنّم لله ويمجده. والكاهن الذي لا يقوم بخدمة القداس الإلهي إن هو إلاّ نغمة شاذة في هذا الترنيم الممتاز! ويحسن أن ترتلوا بين وقت وآخر القانون الموضوع في التوسل إلى ربنا يسوع المسيح وتمجيده (الموجود في كتاب السواعي الكبير) وكذلك مدائح الرب يسوع (الموجود في آخر كتاب "الحرب غير المنظورة " الذي وضعه القديس نيقوذيموس الأغيوريتي) من أجل أن يحفزنا على التأمل على الدوام في اسم ربنا يسوع المسيح الخلاصي، الكلّي الحلاوة، المانح الفرح، وباعث كل الصالحات، وأن لا نردّده بالفم فقط، بل بالقلب والعقل أيضاً".

عليكم واجب الصلاة أيضاً من أجل الآخرين، لأنّ الله أوكل غليكم شعبه ولهذا انتم ملزمون بالاختلاء للصلاة من أجل أن يمنح الله شعبه السلام والإنارة كما فعل موسى العظيم أيضاً...

9- ((الصلاة)) من أجل الآخرين

– هذا حق أيها الشيخ. إننا لم نقل حتى الآن شيئاً عن "الصلاة" من أجل الآخرين فكيف يمكن للمرء استخدامها في هذا السبيل؟

– في العالم يا أبتِ الكثير من الشقاء والضلال وعدم معرفة الله، والآباء القديسون يعتبرون جهل الإنسان لله أعظم خطيئة، ولهذا أنتم ملزمون بأن تبكوا وتصلّوا.

إنّ القديس يوحنا السُّلَّمي (صاحب كتاب سلّم الفضائل) كتب خطاباً وجّهه إلى الراعي، أي إلى رئيس دير، وهو يصلح أن يوجَّه أيضاً إلى كل أسقف وإلى كل مرشد روحيّ، لأنّ المرشد الروحي هو أسقف كل نفس. قال فيه: "يجب على الكاهن أن يفعل ما يفعله الراعي حين تستريح الأغنام. فإنه يطلق الحرية للكلاب حول الصيرة لكي تحرسَ القطيع من الذئاب ففيما ينام المسيحيون يجب على الكاهن أن يسهر وأن يطلق عقله حراً مستيقظاً لا ينام لكي يصرخ إلى الله من أجل شعبه. فكم منهم في تلك الساعة يسلك طريق الضلال؟ وكم منهم من يرغب في الانتحار. وكم منهم من يعد العدة لارتكاب جرائم رهيبة؟ وكم منهم من استحوذ عليه القنوط والشعور بالخيبة وفقد الخيرات؟ من أجل هؤلاء ينبغي

أن تتلوا ''الصلاة'' هكذا: ''يا ربي يسوع المسيح خلّص عبيدك أو عبدك'' إن كانت هناك حالة فريدة معيَّنة.

– أتسمحون لي بسؤال؟... لقد قلتم قبل قليل إنّ ''الصلاة'' ينبغي أن تتمَّ بدون تخيلات. والآن تقولون بضرورة الصلاة من أجل الآخرين الذين ينوءون تحت المشاكل. ولكن... أما تُشغل أمورهم هذه المخيّلة وتنميّها فتكون سبباً لتشتّت العقل في وقت يجب علينا أن نتوخى فيه تركيز العقل في ذاته وردّه من شتاته ليستقر في القلب أيضاً؟

– لقد أحسنتَ بتوجيه هذا السؤال إليَّ، لأنّ المزيد من الشرح والتوضيح ضروري هنا. يجب علينا حين نصلي من أجل الآخرين أن نتلو ''الصلاة'' خارجياً، أعني أننا إذا ما أردنا الصلاة لفترة وجيزة بواسطة ''صلاة يسوع'' من أجل الآخرين فعلينا أن نقول في المرة الأولى ''يا ربي يسوع المسيح خلّص عبيدك، أو عبدك (ونذكر أسماءهم). وبعد ذلك نواصل ترديد الدعاء عينه بدون ذكر الأسماء، متوخين إبقاء عقلنا في منأى عن الإطلاق إليها. إنّ الله يعرف من نصلي من أجله. فيجب ألاَّ نفكر إبَّان ''الصلاة'' في المشاكل التي تشغله، ويكفي أن نذكره قائلين''خلّص عبدك'' ليرسل الله نعمته الإلهية. فإن كان المصلّى من أجله مستحقاً للنعمة تفعل ويمنحه الله مفاعليها حسب حالته.

إنّ النعمة الإلهية يا أبتِ، مثلها مثل الماء ما يكاد يأتي إلى الحقل حتى تمتصه جذور النباتات ويعطي كُلَّ شجرة ما تحتاج إليه. أو لسنا نحافظ على هذا المبدأ في خدمة القداس الإلهي أيضاً؟ فإننا نصلّي من أجل كلّ الأمور، والشعب يردّد قائلاً: ''يا ربي أرحم'' لأنّ رحمة الله إذا حلَّت أعطت الإنسان ما هو في حاجة ماسة إليه. وعدا هذا فإنّ الصلاة من أجل الآخرين هي عمل رعائي لازم لسبب وجيه.

– وما هو يا أبتِ؟

– فيما نحن نصلّي من أجل شخص آخر، نتلقى من الله في الحال خبراً عن حاجته الخاصة، وعندها نتمكّن من العمل، بطريقة فعالة ناجعة، من أجل خلاصه.

حضر إلى قلاَّيتي، ذات يوم، شخص، فمدح مسيحياً تبدو عليه سمات النجاح ظاهرياً. ولما كانت آراء الشخص الممدوح غير أرثوذكسية، انطلقتُ في الحال إلى الكنيسة الصغيرة، وسألتُ الله أن يكشف لي حقيقة أمره.. ولن تصدق إذا قلتُ لك....

– معاذ الله يا أبتِ... كيف تقولون لي هذا؟ ولِمَ لا أصدّق؟

–... لقد امتلأت الكنيسة الصغيرة فوراً برائحة كريهة. فقلت في نفسي إنّ هذا الإنسان ليس صالحاً وليس عنده نعمة المسيح. أجل إنه مجرَّد من النعمة الإلهية المحيية. ولذا فهو مائت أيضاً. ''إنه ذو اسم لأنه حيّ ولكنه مائت''. ومثل الإنسان مثل النفس إذا غادرت الجسد مات وأنتن. فإن غادرته النعمة الإلهية ماتت نفسه وخلّفت رائحة روحية نتنة!

لقد أرعدني كلامه إذ كشف لي حتى الآن الكثير بطريقة لا يمكن وصفها بأنها موسومة بالأنانية. فإنّ القديسين قد تخطوا كل هذه الأشكال. فهم ليسوا أنانيين ولا وضعاء، وإنما هم رجال الله. ويقولون هذه الأمور لا بقصد الاستعراض الذاتي، بل من أجل إسداء النفع وما ذلك كله إلاَّ من أجل مجد الله. فإنّ ناموس الله أمسى ناموسهم وقد خُطَّ عميقاً – عميقاً في كل سيرتهم.

وأضاف قائلاً: يمكن القول، على وجه الإجمال، يا أبتِ، إنّ صلاة يسوع لازمة لعملكم. فانّ تصلّوا تستطيعون تبيّن حركات الشرير الخبيث داخل قلبكم. فإنّ القلب يصير بواسطة ''الصلاة'' شديد الإحساس، ثاقب البصر، عليماً قادراً، يعي وجود الشيطان فيه و''الصلاة'' تضفي عليه، في الوقت عينه، قوة زائدة تمكّنه من طرد الشيطان. وهكذا يمسي إناء يتقبّل الروح القدس.

حينذاك تستطيعون – بما لكم من خبرة حصلتم عليها في حربكم ضد الشيطان، وبمعرفة النعمة الإلهية– أن تدخلوا بسهولة نفس المتقدّم إلى الاعتراف أمامكم، وأن تتعمقوا في عالمه الباطني، فتكون الفائدة جزيلة، لأنه سيخرج إنساناً آخر بعد ممارسة سر الاعتراف، متحرراً من الأهواء، ما كان منها معروفاً أو مجهولاً على السواء.

وأضاف قائلاً: إني أرغب في أن أسألكم أن تحققوا لي التماسات ثلاثة. وأعتقد أنكم تستجيبون.

– قلتُ: أطلبوا ما تشاؤون فإنّي موقن أنه سيكون قابلاً للتحقيق.

الالتماسات الثلاثة

الأول: إنّ الرهبان المجاهدين ''بالصلاة'' يلجون بنعمة المسيح مملكة الشيطان ويخرّبونها، يدمّرون خططه كلها. وهم يزعجونه بالصلاة المتواصلة. ففي الجبل المقدّس لا تمرُّ دقيقة واحدة لا يُسمع فيها نداء إلى يسوع وإلى السيدة والدة الإله. والشيطان يرتعب لأنهم يزعجونه. ومن أعماله الرئيسة محاولاته إيقاف الرغبة الصالحة التي تلجّ بنفس إنسان ينشد الهدوء. لهذا أسألك ألاّ تنسى في صلاتك الرهبان والمرشحين للرهبنة. ردّد من أجلهم ''يا ربي يسوع المسيح خلّص عبيدك'' وأيضاً ''يا والدة الإله الفائقة القداسة خلّصي عبيدك''.

إذا رأى الشيطان أشخاصاً يستعدّون للانخراط في سلك الرهبنة حمل إليهم حب الناس لهم، ذلك الحب الذي لم يكترثوا له من قبل.فيأتي إليهم أقرباء وأصدقاء وآباء روحيون أيضاً ليظهروا لهم حبّهم بكلمات جميلة وعبارات منمَّقة واهتمام بارز.

والناس لا يصلّون في هذه الأيام، كما أنهم لا يدعون الراغبين في الصلاة وشأنهم. ويريدون أن أن يعايشهم الناس جميعاً في المجتمع بدون صلاة إلاّ أنّ العالم لفي ضياع، وهو يعاني بسبب عدم وجود من يهتم بحاجاته بل بسبب ضآلة عدد المصلّين فيه.

ويظن كثيرون أنّ عمل الرهبان المنصبّ معظمه على الصلاة هو عمل تافه لا نقع فيه. وما دروا أنّ الصلاة عمل روحي هادف، ومجاهدة دموية، وحضور صاحٍ لا ينعس. كما أنهم لا يريدون أن يعلموا أنّ هناك أشخاصاً يصلّون من أجل حل مشاكلهم. وهم يقاومون الميول الرهبانية وبذلك يمسون أدوات للشيطان.

والشيطان الخبيث يحاول أيضاً جرّ الذين يتأهبون للانخراط في الرهبنة إلى خطايا شنيعة تنجس الجسد. حتى إذا نجح في إسقاطهم قصَّ أجنحتهم وعسّر أمورهم في الحياة الرهبانية. ذلك لأنه —كما قلنا — بمقدار ما يشعر المرء باللذة في العالم، يذوق والعذاب والألم في الرهبنة وهو في طريق التطهّر.

الثاني: أذكرني في أدعيتك لكي يرحمني الله. فإني أخشى أن أفقد النعمة الإلهية بسبب تهاوني، لئلا أغرق في هذا الميناء الصغير الهادئ.

صلّ من أجل أن يهبني الله بقية زمان حياتي مسيحية سلامية بلا وجع ولا خزي وجواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب.

صلّ إلى السيدة والدة الإله من أجل أن تعزّيني وأن تقوّيني إني أتوسّل إليها كل مساء بنوع خاص، من أجل أن ترعاني وتساعدني في الحياة الراهنة، وأن تطرد الأبالسة –ساعة خروج نفسي– الذين يريدون أن يخطفوها. وأن تخلّصني في يوم الدينونة الرهيب من العذاب الأبدي وأن تؤهّلني للتمتع ببهجة الفردوس.

صلّ أنت من أجلي لكي أتوب. إني أريد أن أبكي بسبب خطاياي، ومن أجل أن أصير مستحقاً لرحمة ربنا.

الثالث: استعملْ لنفسك يا أخي سوط يسوع واجلدْ باسم يسوع محاربيك [راجع أفسس 6: 10-18... (الشبكة)]. إتلُ "صلاة يسوع" لتجد رحمة لدى الربّ.

أتعلمْ أيَّ مجد يعدّ الرب في السماء لمحبّيه؟ وهل تدرك أي حفل بهيج متلألئ بالنور ينتظر الصدِّيقين؟ لكي لا تبقى خارج خدر المسيح ولكي لا تسمع قوله: "إني لا أعرفكم".

تنهّد الناسك ثم قال "يا ربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ، وارحم عبدك... "يا والدة الإله الكلية القداسة خلّصيني وخلّصي عبدك...". بعدها أحنى رأسه واستغرق في صمت...

– إني أعدك باستجابة مطالبك الثلاثة أيها الشيخ القديس، أنت الذي صرت لي في هذا المساء نور نفسي... مهما كان الأمر فإني سأحقق مطلبك الأول، ثم الثاني، ولو أنه لا لزوم له. أما المطلب الثالث فإني أُعيده إليك...

سقطت على ركبتيه وصرختُ بدموع ملتهبة:

– احتفظْ بي بقربك معيناً لي، لكي أخلص. لست أرغب في العودة إلى العالم، فلقد وجدتُ الآن خلاصي. خذني إذاً أيها الأب القديس وعلّمني. دلّني على الدرجات السرّية، درجات التأله. افتح لي بلاط اسم يسوع وأظهر لي كل أجنحته فإني أعمى وأصرخ "ارحمني". وأنا عشار دفَّعتني الخطيئة عشورها وأصرخ "ارحمني"... وإني لغريب الجنس كالمرأة الكنعانية، لكني أجرؤ على الاستغاثة ارحمني... وقد بُليتُ ببرص الأهواء وأصرخ من كل نفسي "ارحمني"... وأنا الابن الضال، طالب العودة... أنا...

أنا... أنا لست ابناً لله وإنما أنا ابن الشيطان... اقبلني عندك أيها الشيخ.. لا تدعني أغادر هذا المكان.. أريد أن أموت هنا. في هذا المكان الموحش المجدب، لكي تفوح نفسي بالمسك وأشاهد الله. أودّ أن تصير دموعي غذائي وأن أمسي قيثارة لله، لأرنّم كما ترنّمون في كل صلاة سحر:

''سهرتُ وصرتُ كالعصفور المتوحّد على السطح وصارت دموعي خبز النهار والليل إني أكلتُ الرماد مثل الخبز ومزجتُ شرابي بالنحيب، تعبتُ في تنهدي وبدموعي أبلّ فراشي كل ليلة لأني ذهلتُ عن أكل خبزي، من صوت تنهدي التصق عظمي بلحمي، من أجل كلام شفتيك أنا حفظتُ طرقاً صعبة. تعطّشتْ نفسي إليك كثيراً في أرض بريّة وعديمة الماء. يا بهجتي خلّصني من المحيطين بي المتآمرين عليّ''.

أتسمع أيها الشيخ؟ لن أذهب... وسأبقى هنا. أجل إني سأعيش هنا وأموت هنا. ومن هنا أيضاً سأصعد إلى السماء فاقبلني يا أبتِ...

أما هو فقد صمت. وربّما كان يتكلّم. لكنني لم أستطعْ أن أسمع شيئاً. سمعته أخيراً يقول:

– يا ولدي إنّ العالم في حاجة. اذهبْ إلى العالم واعملْ وأعلنْ إرادة الله... ''إذهب إلى بيتك وحدّثْ بما صنع الله بك''.

ووجدتني ملزماً بالامتثال لنصيحة الشيخ، على الأقل في الوقت الحاضر، فهذه هي مشيئة الله.

قلتُ: ولكن... أعطني وعداً بقبولك لي للبقاء عندك بضعة شهور، لكي أتتلمذ في ملكوت الله.

– أجل إنك ستكون مقبولاً متى شئت، قم الآن واسترح قليلاً. فقد اقترب منتصف الليل، وسنقوم بعد قليل بخدمة القداس الإلهي. استعد اليوم لتتولى خدمة القداس.

– إنّ النوم لن يريحني في هذه الليلة بالذات، والقلاية لا تسعني. فلقد ولدتُ في هذا المساء واعتمدتُ. فهبني بركتك لأبقى خارجاً، في الحديقة، إلى أن يحين موعد القداس إنّ السهر في مثل هذه الساعات يتيح للمرء التمتع بأفضل راحة. والقائمون بحراسات الليل يسمعون صوت رئيس الملائكة، ويسجدون للإله الإنسان ويصيرون أناساً متألهين!

– فليكن مباركاً... الله معك.

منتصف الليل في بريّة الجبل المقدّس

انسحبتُ إلى الخارج وجلستُ على صخرة. وكان الليل قد أرخى سدوله. أما البحر فكان يرسل إلينا أصداء صخبه من بعيد، وقد ملأتْ حلاوة الأبدية نفسي المضطربة. هنا الهدوء يبسط السكينة بغير حدود، لكني أحسستُ بحضور الله–الإنسان، العارف أن يملأ المكان الخالي والزمان الذاهب!

لم أعش في حياتي مثل هذه اللحظات السعيدة إلاّ قليلاً. مرتين على وجه التحديد. في المرة الأولى كنت طفلاً صغيراً في حضن أبي الروحي (عرّابي) وقد سمعتُ التعليم الديني، وبِفَمِهِ طردتُ الشيطان لكي أصير جديراً بدخول جرن المعمودية المقدّس وعضواً صالحاً في جسد المسيح. أما المرة الثانية فقد حدثتْ في تلك الأمسية في مكان منعزل في الجبل المقدّس (آثوس) حيث سمعتُ التعليم الديني من فم مبارك لا يكلّ هو فم الشيخ، لكي أتمكن بعد ذلك من دخول جرن معمودية ثان هو جرن التوبة، ومن مقابلة الله. مع فارق واحد هو أني في المرة الأولى لم أكن أفهم شيئاً (لا شيء تقريباً)، وأما في المرة الثانية فقد كنت عارفاً إلى حد ما بالحركة المتجهة صوب الله... ولقد أرسل الله إليّ –في تلك العشيّة– المنَّ وغذّاني بواسطة ذلك الشخص القديس الناسك.

يقول النبي إشعياء ‘‘طوبى لمن له في صهيون بذرة وأهل في أورشليم’’. ويشرح إيغومانوس دير ستافرونيكيتا الأغيوريتي (الآثوسي) هذه الآية بفكرة عميقة قائلاً ‘‘يمكننا القول إننا كلّنا مغبوطون. لأنّ لنا في الجبل المقدّس (آثوس)، صهيون الأرثوذكسية، بذرة النساك القديسين، ولنا أيضاً العديد من أهلنا في أورشليم العلوية. وهؤلاء يعيشون من أجلنا، وهم نور ورجاء لحياتنا الحاضرة والآتية’’.

أردتُ أن أطبّق بعض ما قاله لي الناسك الشيخ وهو الذي كان لي خلال مسيرة المحادثة كما وصفه الأنبا بيمين ‘‘مرشداً إلى السّر أكثر منه واضع ناموس’’. فأحنيتُ رأسي ووضعته بين ركبتيّ على غرار ما فعل النبي إيليا في جبل الكرمل. وأخذتُ أؤجج قلبي قبل الشروع في‘‘صلاة يسوع’’.

إنّ ساعات الليل مبعث حياة للرهبان لأنها تحفزهم إلى ‘‘صلاة’’ لا تنقطع وتثير فيهم أفكاراً عن يسوع كلية العذوبة. ولليل تأثير حاسم في نفوسهم إذ يجعل الحياة الملائكة معاشة فيهم. بذلك يفضلون تخصيص الليل للعمل العقلي والصلاة. والرهبان يلغون الليل، طالما أنّ الحياة الرهبانية تلغي كل شيء. وإنها لإبطالٌ للموت أيضاً، لأنّ الحياة تنتقل إلى الآخرين بطريق الزواج وتنتقل به الموت أيضاً في الوقت

عينه، فيولد كائن جديد، مزمع أن يموت أيضاً، في حين أنّ حياة البتولية توفق الموت عن التحكّم في البشرية وقهرها. فعند الراهب تبدأ الأبدية وهي الحياة الحقة، وهو لذلك يحيا الواقع الأُخروي (الإسخاتولوجي) والسيرة الملائكية. وقد قال الربّ ''أبناء هذا الدهر يُزوِّجون ويُزوَّجون. لكنّ الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات، لا يزوِّجون ولا يُزوَّجون''. (لوقا 20: 35). فإنّ حياتهم هي حياة دهر آخر. والحياة الحاضرة تمسي عندهم أبدية، والزمن يغدو لا زمنياً.

قال ميثوذيوس في كتابه المائدة ''ينبغي التقدّم أولاً بسلوك البتولية على الأرض من جهة، والالتصاق بالسماويات من جهة أخرى''. ولهذا يمكننا القول إنّ الحياة البتولية هي إبطال لليل أيضاً. والليل يتحوّل إلى نهار طالما أنهم يعيشون السيرة الملائكية الإسخاتولوجية عيشة إختبارية. وحيث أنه بحسب سفر الرؤيا ''لا يكون هناك ليل''. هذا عينه يجب أن لا يكون ليل عند هؤلاء الذين هم ملائكة في الجسم، فإنّ المسيح الحمل والشمس، يُنير كلَّ شيء والليل في نظر الآباء القديسين مفيد للجميع، العمليين منهم والنظريين على السواء. والعمليون هم المبتدئون الذي لا يزالون في المرحلة الأولى من الحياة الرهبانية، والملزمون بأن يقاوموا أهواءهم ويبذلوا جهدهم، لكي يحولوها إلى عشق إلهي!. فإنهم ''مربُّو بهائم'' ويحاولون أن يقودوا البهائم. وما هذه البهائم إلاَّ حالات منحرفة للنفس. أما الرهبان النظريون فهم الذين قطعوا هذه المرحلة وقد انتقلوا من عبودية مصر(عبودية الأهواء) إلى بريَّة اللاَّهوى. وهم رعاة يقودون غنماً، أعني بها العقل النقي والقلب الطاهر، إلى جبال المشاهدة. يقول الآباء إنّ الليل لازم ونافع للرهبان العمليين والنظريين على السواء. فالعمليون منهم يذكرون فيه ما ارتكبوا من خطايا خلال النهار وما يتبع انزلاقهم إلى المعاصي من تشويش واضطراب. وبمؤازرة النعمة المتدفقة حياة يكتشفون –بالحق لا بالتخيّل– بعد أخلاقيات النفس والجسد فيأخذون بعد ذلك بالصراخ ''يا ربي يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني''. ولا يتركون جميع أفكارهم المذنبة وشهواتهم البذيئة، وأعمالهم الآثمة، مقيَّدة في أعماق كهوف اللاوعي بل يدخلون بشجاعة هذه الكهوف ويُخرجون كلَّ ما كُبتَ فيها، مؤازَرين في ذلك بقوة النعمة الإلهية، وبهذه الطريقة يُشفون، إذ بها يطهّرون القلب والعقل لا من الهواجس المركّبة وحسب بل الهواجس البسيطة أيضاً.

أما الرهبان النظريون فإنهم يقضون ساعات الليل بطريقة مختلفة، فقد سبق تطهّرهم من الحالات المخالفة للطبيعة ولذلك ينصرفون إلى المزيد من تمجيد الله القدوس المثلّث الأقانيم. وهم يهدأون عقلياً ويقودون

الفكر والقلب إلى جبال المشاهدة. فإذا سجا الليل فكروا في يوم خلق العالم، حين كانت الأرض غير مرئية، وغير منظّمة، ويخيّم الظلام فوق اللجة. وبعدها تبدأ النجوم بالبروز فيذكرون خلق النجوم وكما سبّح الملائكة الله وقتئذً لخلقه العالم كله، يسبّحون هم أيضاً الآن الله على خلقه العالم كله. وبينما الناس ينامون كأنهم غير موجودين، يسهر هؤلاء وحدهم مع الله ويمجدّونه كما كان يمجّده آدم قبل أن يخطأ. وإذا ظهرت البروق واشتد قصف الرعود تذكّروا يوم الدينونة الرهيب. وعند سماعهم الطير وهي تصدح يشعرون بصوت الأبواق وهي تدعوا الأموات ليهبُّوا من قبورهم. ويذكّرهم شروق نجمة الصبح وبزوغ الفجر بظهور الصليب الكريم المحيي، آية ابن الإنسان. ويذكّرهم سطوع نور الشمس بمجيء المسيح شمس البر، بمجد عظيم والقديسون هم أولئك الذين ينهضون حينذاك فوراً لكي يسبّحوا المسيح، وهم الذين يُخْتَطَفون في السحب لاستقبال الرب في الهواء". أما الذين يتوانون عند شروق الشمس مهملين التسبيح لله فأولئك هم الخطأة الذين سيُدانون...

لقد حاولتُ أن أعيش تلك الأمسية على هذا المنوال إلى حدّ ما وتوخيّتُ بهذه الأفكار، أن أبثَّ الحرارة في قلبي البارد فلما دبّتْ فيه الحرارة صلّيتُ بكلمات، تكاد أن أن تلك الكلمات المحبوبة عينها التي قالها القديس [المغبوط.. (الشبكة)] أغوسطينوس: "إنك أنت القوس المختارة والسيف البتّار القادر على اختراق شغاف القلب الإنساني الصلب. اجرحْ قلبي بسهم شوقك، لتقول لك نفسي: لقد انجرحتُ بعشقك فسالت دموعي مدراراً طول الليل والنهار بسبب جرح حبي لك. إني أسألك، يا سيّد، اضربْ نفسي الصلبة بنصل سيف حبّك القوي، وأنفذْ إلى أعماقها بقدرتك الفائقة. وامنحْ رأسي ماء غزيراً بغير حدّ، ساكباً في عينيّ ينابيع دموع تفيض على الدوام مني أنا الذي ملكه الحب والشوق بلا حدّ إلى رؤية وجهك الكلي الجمال لكي أبكي على الدوام، غير قابل أيّ تعزية في الحياة الحاضرة، إلى أن أوهّل لرؤية الختن المحبوب الفائق الحسن في المظال السماوية إلهي وربيّ...

ارفعْ إلى فوق فمَ نفسي المتعطشة إليك، نحو التيارات القائمة فوق الأشياء، تيارات شعبك السرمدي، وبالأحرى أجذبها إليك أيها الينبوع الحيّ، إلهي وحياتي حتى إذا شربتُ منه بقدر ما أستطيع، أحيا إلى الأبد. يا ينبوع الحياة، إملأ ذهني من نهر نعيمك، وأسكر قلبي سكراً بدون خمر، هو سكر عشقك، فأنسى الأباطيل والتوافه والأمور الأرضية، ولا يبقى في ذاكرتي على الدوام سواك أنت وحدك...".

بعد ذلك ردّدتُ ''الصلاة'' ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وهي ''الصلاة'' التي علّمني إياها الناسك. ولم أدرِ كم من الوقت قضيتُ هناك. فإنّ بعض اللحظات تتوقف عندها عقارب الساعة ولا تتحرك. والأبدية قد أوقفت الزمن...

لقد انقضى الوقت وقطعتُ منتصف الليل من زمن. وبدت لي أكواخ النساك وهي تضاء شيئاً فشيئاً، لأنّ بلابل الليل تستيقظ الآن لكي تغرّد. تنهض ''ينابيع التخشع والانسحاق'' لتجري متدفقة هنا وهناك فتروي أرضاً عطشى تهبُّ ''أبراج الجبل الناريَّة'' لكي تّنير تتفتح ''الزنابق العطرة'' لكي يعمّ أريجها المسكونة.

بعد قليل يصدح النسَّاك بالتضرّعات والترانيم في فيضان من دموع التوبة والإشراق. إنهم يهبُّون من رقادهم ليسبّحوا المسيح متوسلين عليه أن يرسل نعمته الإلهية ورحمته الغنية.

يا يسوع، أيها الجمال المذهل، الذي يفوق كل حسن، أمجّدك يا من تلازم قدرته إرادته.

يا يسوع، العشق الجنوني المشوق إليه أكثر من كل شيء. أمجّدك أيها القادر على حكم عوالم لا تحصى.

يا يسوع، الطريق والحق والحياة، أشكرك لأنك قدتني إلى حقيقة أقوالك الإلهية المحيية.

يا يسوع أيها الموضوع النهائي ''لمشاهدة'' المغلوطين، أشكرك لأنك أهّلتَ طبيعتنا غير المستحقة لمثل هذا المجد، مجدك.

يا يسوع النور الذي يفوق كل نور، أعترف لك بأني أسير في ظلمة الخطيئة، وقد غمرتني دياجير الظلام.

يا يسوع يا آخر القضاة، أعترف لك بأنه لم يسبق لي أن جُرحتُ بحبك كما يجب.

يا يسوع الحرارة المحيية الكلية العذوبة، بُثّ حرارتك فيّ أنا الذي استحوذتْ عليه البرودة.

يا يسوع أيها الثوب المرصّع بالنجوم، المتلألئ بالنور، زيِّني أنا العريان.

يا يسوع يا بدء حياتي ومنتصفها ونهايتها، طهّر قلبي، لكي أراك.

يا يسوع، الكائن للجميع وفوق الأشياء كلّها. أنت إلهي. أظهرْ فيَّ وجهك، فأخلص.

يا يسوع، أيها الواحد الفائق العقل، اجعلني موحداً كلياً بذاتي بعودة عقلي وتهذيبه.

يا يسوع، يا سرّ السكون المجهول بصورة فائقة، اجعلني أسمى من كل شيء حسّي وعقلي.

يا يسوع ابن الله، ارحمني.

إنّ الجبل (آثوس) في هذه الساعات مُحاصر، والشيطان يزأر، بيد أنّ الرهبان يتألهون حقاً...

خدمة القداس الإلهي

واصلتُ تلاوة ''الصلاة'' طويلاً وتذكرتُ أشخاصاً، إخوة لي وأصدقاء يعيشون في العالم وشعرتُ في تلك الساعة بالحاجة على التضرع من أجلهم بحرارة.

لقد دعوني ذات يوم للقيم بخدمة القداس الإلهي في كنيسة صغيرة في الكوخ. ويا له من قداس عظيم.. كنت أعلم أنّ القداس هو علم لاهوت كامل ورؤية إلهية وأنّ القداس أيضاً هو الفصح الحقيقي: والجلجثة وقيامة المسيح. إلاّ أني في تلك الأمسية عشتُ هذه الحقيقة وفهمتها. وقد أدركتُ أنّ القداس هو الحدُّ الأخير لحياة المؤمن يقول نقولا كاباسيلاس: ''هذا هو منتهى الحياة فلا تبقى هناك حاجة إلى شيء يتعلّق بالسعادة المنشودة''. أجل إنه سعادة المؤمن العظمى. وهو ما عشته هناك في تلك الأمسية.

كانت بعض القناديل مضاءة في تلك الكنيسة الصغيرة أمام الأيقونات لتبرز وجوه القديسين والسيدة الفائقة القداسة والمسيح وكان المريدون الثلاثة والشيخ ثابتين في كراسيهم العتيقة وكانوا يعيشون السرّ الإلهي (القداس الإلهي) وما كانوا يتابعون الخدمة وحسب بل كانوا يقدّسون معي أيضاً! وكانت صورهم أشبه بأيقونات القديسين المرسومة على جدران الكنيسة وكأنهم قد انفصلوا عن هذه الجدران ليعيشوا الفصح.

وكانت الأصوات رقيقة، ضعيفة، يخنقها الحزن. وكان الترتيل يصدر من أعماق النفس عن قلب جرحه العشق الإلهي وهناك يمكن تبيّن إنسان العالم بوضوح، ذلك الإنسان الذي لا يعيش بالتنسّك والانسحاق.

أعترف أنّ ذلك القداس الإلهي أوقعني في مشكلة. فإني لم أشعر مرة في حياتي بمثل الحيرة التي انتابتني فيه إلى جانب الفرح العميق الذي نعمتُ به. فقد كنتُ كلما خرجتُ لأبارك قائلاً: ''السلام لجميعكم'' وقعتُ في مشكلة من الناحية البشرية. فقد كان يجول في ذهني أنّ هؤلاء حائزون على السلام، أما أنا ففي مسيس الحاجة إلى حياة السلام. وعندما كنتُ أوجه إليهم البركة الرسولية ''نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس لتكن مع جميعكم'' كنتُ أعلم جيداً ما كنت أفعل... فلقد كنتُ أرسل بركة ونعمة إلى هؤلاء الممتلئين نعمة. وكنتُ أقول ''لنضعْ قلوبنا فوق'' لقوم وضعوا قلوبهم في

السماء لتظلّ هناك إلى الأبد. لقد كنتُ أنا وحدي الإنسان الذي ينبغي أن توجه إليه هذه الدعوات في القداس.

ولقد أدركت في القداس أيضاً حقيقة وجودي في الخطيئة حين شرعتُ في تلاوة إفشين "ليس أحد من المرتبطين بالشهوات واللذات الجسدانية مستحقاً أن يتقدّم إليك أو يدنو منك أو يخدمك يا ملك المجد..." واستولى عليَّ خشوع وانسحاق حين قلتُ "أنظرْ إليّ أنا عبدك الخاطئ والبطّال، وطهّرْ نفسي وقلبي من الضمير الشرير، واجعلني كفؤاً بقوة روحك القدوس أنا اللابس نعمة الكهنوت لأن أقف لدى مائدتك المقدّسة، وأخدم جسدك المقدّس الطاهر ودمك الكريم، لأني إليك أتقدَّم حانياً وطالباً إليك، فلا تصرفْ وجهك عني، ولا ترذلني من بين عبيدك، لكن ارتضِ أن تُقدَّم لك هذه القرابين على يدي أنا عبدك الخاطئ وغير المستحق".

بيْدَ أني شعرتُ بالنعمة أيضاً وقد أضفى الحضور الإلهي على نفسي لذة وعذوبة، بعد أن تطهّرتْ من قبل جيداً بإرشاد الناسك الحكيم وبركته وهي الآن "تُقدَّم" لتكون مسكناً لملك الكل...

ولما حان وقت "الشركة الإلهية" عشتُ لحظات من التأثر العميق بلغ أقصى مداه. فقد اقترب أشخاص متجرّدون من المادة بعد أن مارسوا رياضات التنسك، نيّرون إستمدوا نورهم من رؤيتهم للنور الذي عاشوه، اقتربوا ليشتركوا في الأسرار الطاهرة وليأخذوا نعمة من ملء جسد المسيح.

إنّ "الصلاة" تزيد المحبة قوة وتنميها وكلما زادت اشتعالاً دفعتهم دفعاً إلى مائدة المحبة وقادتهم إلى الإتحاد بالله – المحبة. وبقدر ما يُكثرون من الاشتراك في جسد الرب ودمه الكريمين تزداد غيرتهم في "الصلاة".

"يتناول عبد الله... الراهب جسد الربّ ودمه لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية". أجل.. أجل. كانوا يأخذون الحياة الأبدية. "هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا 17 : 3).

إنها لمشكلة حقاً أن تقوم بخدمة القداس الإلهي وتنقل المسيح إلى آلهة بحسب النعمة. فإنّ المسيح حاضر هنا. "إنّ الله بين آلهة متألهين من الله حقاً".

إنّ أعضاء الإنسان تصير بالشركة الإلهية حاملة نور. فنحن بتناولنا الغذاء السماوي، المنَّ الروحي، لا نحوّله إلى جسد بل الجسد يتحوّل إليه. وكلُّ شيء يصير به نيِّراً!

بعد الشركة الإلهية يقول القائم بوظيفة مرتل، بحسب ترتيب الجبل المقدّس (آثوس) من بعد ".. كل حين الآن وكل الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين" ما يلي: "آمين. آمين. لغفران الخطايا وللحياة الأبدية. ليمتلئ فمنا تسبيحاً يا ربّ لكي نترنّم بمجدك. لأنك أهّلتنا للاشتراك في أسرارك المقدّسة الطاهرة، عديمة الموت، فثبّتْنا في تقديسك لكي نتأمل عدلك كل النهار. هلليلويا.. هلليلويا.. هلليلويا". فإنهم من أجل هذا يشتركون (يتناولون) لكي يعيشوا كل يومهم مع المسيح ويتأملوا اسمه القدوس المشوق إليه جداً.

وعند نهاية القداس يقرأ أحد الرهبان صلاة الشكر لله بعد الشركة المقدّسة. وفيها يدرك المرء جيداً بعد تلك اللحظات المؤثرة معنى الأدعية التي وضعها الآباء القديسون ومنها ما جاء في التضرع إلى ربنا يسوع المسيح: "هَبْ أن تكون هذه لي أنا أيضاً لاستنارة عيني قلبي، وللازدياد من نعمتك الإلهية، والتأهل لملكوتك، حتى أذكر نعمتك على الدوام وأنا محفوظ بها في تقديسك، ولا أعيش بعد الآن لذاتي، بل لك يا سيّدي والمحسن إليّ".

ومنها التوسّل إلى سيدتنا والدة الإله الفائقة القداسة التي يكرّمها الرهبان بنوع خاص: "... يا من ولدتِ النور الحقيقي، أنيري عيني قلبي العقليتين، يا من ولدتِ ينبوع عدم الموت، أحييني أنا المائت بالخطيئة، يا أمَّ الله الرحيم، الحنونة. ارحميني وأعطي قلبي انسحاقاً، وتخشعاً، واتضاعاً في أفكاري، واستعادة في حالة أسر هواجس، واجعليني أهلاً، حتى آخر نسمة، لقبول تقديس الأسرار الطاهرة بلا دينونة. وهبيني دموع توبة واعتراف، لأسبّحك وأمجّدك كل أيام حياتي..."

إنهم يتحدثون عن النور والحياة، وعن دموع التوبة أيضاً.

ومن بعد الشركة الإلهية (المناولة المقدّسة) تزداد الحياة الروحية نمواً. فإنّ المسيح لازم وضروري لمواصلة الرياضة والتقشف.

إنّ الكنيسة الصغيرة في تلك الليلة كانت بالنسبة إليَّ، الأرثوذكسية بكاملها، سرَّ حضور المسيح وسلَّم يعقوب. ومن أعماق قلبي ندَتْ صرخة ''يا له من مكان رهيب، إنه بيت الله. وهذا هو باب السماء''، من هنا يصعد الآباء الأبرار إلى الأبدية وينعمون بها.

قبل قليل شفى الله شللي على يد الناسك القديس. أما الآن فإني إبان خدمة القداس الإلهي في الكنيسة رأيتُ الله وتعرفتُ عليه كما حدث للمخلّع تماماً. فقد شفاه الربّ عند البركة ثم رآه هذا في الهيكل فعرفه وسجد له.

في تلك الليلة أشرقت... إنها ليلة ليست كسائر الليالي. دعنا نصورها بكلمات أستيريوس:

''أيتها الليلة الأشد بهاء من النهار،

أيتها الليلة الأسطع نوراً من الشمس،

أيتها الليلة الأنصع بياضاً من الثلج،

أيتها الليلة الأجلى بريقاً من البرق،

أيتها الليلة طاردة النوم،

أيتها الليلة معلّمة السهر للصلاة مع الملائكة...''.

إني أعترف بكل توكيد أنّ يوماً واحداً نقضيه في الجبل المقدّس (آثوس) أثمن من سنة بكاملها في التأمل والدرس، وأنّ أمسية في كوخ في مكان بعيد مقفر لأعظم قيمة من شهادة جامعية. وأنّ حديثاً مع أحد النساك لبضع دقائق لهو ملعقة فيتامينات أثمن بكثير من آلاف التوافه التي نأكلها في العالم!

وأعتبر الجبل المقدّس (آثوس) فلكاً للأرثوذكسية لا يقول الكثير وإنما يعيش الكثير. وهو كما قال القديس غريغوريوس بالاماس ''قائم وراء حدود العالم وفوق العالميات. وآثوس هذا موطن الفضيلة''. إنه وديان خضراء يانعة للعالم الأرثوذكسي. وكل ناسك فيه مقاومة صامتة ضد روح علمنة إيماننا. لهذا كان ولا يزال ما يقدّم من عطاء عظيماً جداً. وهذا المكان صالح للتوبة، وتتوفر فيه الإمكانية ليعيش الإنسان الأرثوذكسية عيشة اختبار. وبذلك يقدّم آثوس خدمات جلّى للكنيسة وللناس العائشين في العالم.

إن كلّ ناسك في آثوس هو يونان (النبي) بمعناه الحسن، الذي يبدو أنه ذاهب إلى ترشيش (إلى البرية) إلا أنّ ''الحوت البحري'' أي (نعمة الله) يقوده إلى نينوى المدينة العظيمة (أي إلى العالم) لكي يكرز بالتوبة أي بالعودة إلى الله.

''حسن أن نكون هنا ونصنع ثلاث مظال''، أما أنا فلم يكن لي مظلّة هناك وبعد أن أخذتُ كنز ''الصلاة'' الذي شرحه الشيخ لي، كان عليَّ أن أسرع إلى العالم الكبير لكي أمطره بقدرة ''الصلاة''، معلناً في كل أنحاء اليونان عن الكنز الثمين الذي يملكه الجبل المقدّس (آثوس). ولستُ أقصد بهذا الكنز ما في آثوس من نفائس أثرية ذهبية رائعة ومن ملابس كهنوتية مزركشة بالذهب ولا من مخطوطات قيّمة مكتوبة بروائع الخطوط وإنما أقصد الكنز الذي تملكه ''الصلاة'' المفعمة بالنعمة الإلهية ذات القوة التي أبدعت كل ما سبق ذكره في هذا الكتاب.

النزول من ثابور

عندما أخذ نور الفجر ينبلج في الأفق أردتُ أن أستمد بركة الأب لأهبط من الجبل إلى البحر أو لنقلْ من الجبل الروحي إلى خضم المجتمع. وقد وجدتُه صافي الوجه، هادئاً، يردّد ''الصلاة'' فيما يزاول حرفته اليدوية التي يؤمن بواسطتها طعامه المؤلَّف من بعض قطع الخبز المحمص (البقسماط) وبعض اللوازم الضرورية الأخرى.

قلتُ له: ''صلِّ من أجلي'' فيما انحنيتُ لألثم يمينه فأجاب قائلاً: ''وفّقك الله يا ولدي ولتكنْ سيدتنا والدة الإله معك وليقوِّكَ الثالوث القدوس وليحفظ الرب الإله نفسك وجسدك من كل شرّ ومن كل أذى شيطاني ومن كل تخيّل يثير الاضطراب، وليكن الرب نورك وسترك وطريقك وعزّتك وإكليل بهجتك وعوناً أبدياً لك. إحرصْ على مراقبة نفسك واجعل ''صلاة يسوع'' رفيقاً ملازماً لك وصلِّ من أجلي لكي يرحمني الله...''

إنّ صلوات الرهبان كلها تتدفق فيها الحياة وتصدر عن قلب متأله.

قلتُ: أيها الشيخ، إني لشاكر لك على كل شيء صلِّ من أجلي ومن أجل أصدقائي ومن أجل أبنائي الروحيين وأهلي. صلّ... أجل صلِّ أيها الكاهن القديس من أجل العالم كله لأنك في أعلى موقع منه نحو السماء... صلِّ أيها الشيخ فأنت أنبل إنسان في البشرية. صلِّ لأنك كنز للأرثوذكسية لا يثمّن، محفوظ في مجموعة كنوز الجبل المقدّس (آثوس) شأنه شأن آخرين كثيرين. صلِّ، أجل صلِّ من أجلنا نحن الخطأة. فأنت الحية النحاسية التي رُفعت في البريَّة ونحن الخطأة الذين لسعتهم أفعى الخطيئة وإننا لنلقي بصرنا عليك فنشفى. إنك النبي موسى لنا. ترفع يديك من أعالي الجبل في موقف صلاة ونحن تحت ننتصر على العدو. فلا تُخفضْ يديك لئلا تسحقنا قوة الشيطان عدونا. أجل، صلِّ أيها الشيخ...

– ليرحمني الله يا ولدي.

– باركوا.

– ليبارك الربُ. وإني أنتظر مجيئك إليَّ في السنة القادمة...

فيما كنتُ نازلاً من الجبل إلى الشاطئ لأركب القارب كنت أشبه بعصفور ذي أجنحة كثيرة وبالنبي إيليا حامل النار. وقد توقّف منطقي أما قلبي فكان مشتعلاً. إنه كان يطير. وبدون أن أدرك جيداً ما يدور من حولي أخذتُ أرنم بعض عبارات من الخدمة الدينية ألّفها الآثوسي المميّز القديس نيقوذيموس الأغيوريتي للآباء القديسين الأغيوريتيين (الذين عاشوا في جبل آثوس)جاء فيها: ''من يحدّث عن جهاداتكم أيها الآباء المغبوطون؟ ومن يترنم وينشد كما بإنجازاتكم الممتازة في الرياضات التي قمتم بها هنا؟ أيمدح ما لكم من صفاء العقل؟ أم ديمومة الصلاة بلا انقطاع؟ أم يتغنى باستشهاد الوجدان المجهد من أجل الفضيلة؟ أم يذكر المجاهدات ضد الأهواء؟ أم سهركم واقفين طوال الليل مصلّين؟ أم يُثني على عبراتكم المنهمرة على الدوام؟ وهل يمدحكم كشراع تعمل في الخفاء؟ أو يلهج بما لكم من اتضاع الفكر؟ أو يعدد انتصاراتكم الباهرة على الشياطين؟... يا قافلة المواهب، أيتها الجموع، جموع الأبرار المتقدسة المحبوبة لدى الله، ويا أيها النحل الذي جمعه الله في مغاور وكهوف الجبل المقدّس (آثوس) يصنع العسل الكلي الحلاوة، عسل الهدوء، في خلايا عقلية يا طيوب الثالوث ومباهج والدة الإله ومفاخر آثوس وموضع تعظيم المسكونة وإجلالها، تشفعوا إلى الربّ لكي يرحم نفوسنا''.

يا ربي يسوع المسيح، ابن الله، بشفاعات قديسيك، ارحمني أنا الخاطئ.

يا والدة الإله الفائقة القداسة خلّصيني.

نظرة مجملة

الآن وقد أشرفتُ على النهاية، أشعر بالحاجة إلى توجيه جزيل شكري وعميق إجلالي إلى الثالوث الكلي القداسة، لأنه فتح عينيّ وأعانني لكي أرتبط روحياً بالجبل المقدّس (آثوس) بيت الفضيلة، وأن أعرف فيه أناساً مقدَّسين يحيون حياة إلهية بشرية، "يحيون على الأرض لكنّ سيرتهم في السماء". وبتعرّفي عليهم وحديثي معهم وتزوّدي بنصائحهم وجدتُ بُعد آخر في الحياة الروحية. فلقد عرفتُ حرية الروح وفعالية خلاصي بعيداً عن الكلام بالأخلاقيات والتقويات المصطنعة العقيمة، وشعرتُ في قرارة نفسي برسالة المسيحي.

وإني لمدين بشكر لا يُحَدّ للنعمة الإلهية، لأنها جعلتني أهلاً لتدوين هذه المحادثة التي جرتْ في جبل آثوس. ولا ريب أنّ هذه الكلمات المدوّنة تقصر عن عرض ذلك الحديث المقدَّس الحيّ عرضاً وافياً، طالما أنّ الكلمات هي بحد ذاتها ضعيفة، وكثيراً ما تكون غير مناسبة لتعبّر تعبيراً كاملاً عما دار في المحادثة. بيد أنّ القليل المدوَّن في هذا الكتاب قد يتيح للقارئ أن يستشفّ إلى حدّ ما، ما أثارته تلك المحادثة المقدّسة من تخشع وانسحاق. وإني لعلى يقين أنّ هذه الأفكار القليلة قد تساعد البعض بطريقة ما، ويقيني هذا يؤكده ما حدث لي وهو أنّ الشيطان حاربني كثيراً خلال تدويني لهذه المحادثة. فقد شعرتُ بأنه موجود بالقرب مني وهو يحاول بكل حيلة أن يثنيني عن المضي في عملي هذا. غير أنّ النعمة الإلهية قد آزرتني في إنجازه.

إنّ الأرثوذكسيين جميعاً يعلمون أنّ خلاصنا ممكن وتعود إمكانية التأله إلى أننا مخلوقون بحسب صورة الله، وأنّ صورة الله موجودة. إنها يسوع المسيح الله- الإنسان.

وينبّه كثير من اللاهوتيين الأرثوذكسيين إلى حقيقة هامة، ألا وهي أنّ يسوع الله الإنسان هو الحل لكل المعضلات الأنثروبولوجية والمسيحانية (الخريستولوجيا) هي قاعدة الأنثروبولوجيا (علم الإنسان). ويوم كان الآباء القديسون يناضلون ضد البدع، ما كانوا يفعلون بدافع الكره للإنسان، وإنما كان حافزهم حب الإنسان. ويوم كانوا يجاهدون في سبيل صيانة التعليم عن الله- الإنسان خالياً من كل تزييف أو تحريف، فإنما كانوا يفعلون ذلك من أجل خلاص الإنسان. وإلاّ فإنّ إمكانية خلاصنا تضيع بأضاليل البدع وبخاصة ما يدور منها حول شخص الله- الإنسان.

لقد اتّحد– بحسب التعليم الأرثوذكسي– في أقنوم الله– الإنسان، الله التام، الله الحق والإنسان الحق. وذلك ''بلا اختلاط، ولا تغير''. واتحاد الطبيعيتين هذا يقدّم لنا إمكانية التأله والرجاء في تحقيقه. لقد ألَّه يسوع اللُه الإنسان، الطبيعةَ البشرية التي أخذها من مريم البتول(بدون خطيئة) ومجَّدها. ويبقى الآن أن يتأله البشر (من يريد منهم الخلاص). وهذا ممكن بالتوبة والسعي من أجل أن يرتبط المرء بـ الإله– الإنسان، بيسوع المسيح، ويحيا فيه. والتطهّر يأتي بإشراق النور والإتحاد بالمسيح. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي ''حيث التطهّر يكون إشراق النور، ولا يُعطي الثاني بدون الأول''. وهذا على كل حال هو معنى التجسد الإلهي، تجسد الله الكلمة. لم تتجسد الطبيعة الإلهية وإنما الذي تجسد هو أقنوم الله الكلمة. قال مرقس الناسك''إنّ الكلمة صار جسداً (إنساناً) لكي يصير الجسد (الإنسان) كلمة''.

والله– الإنسان يستطيع أن يخلّص الإنسان ويقيم الصورة التي سقطتْ منذ القدم. أجل إنّ الإنسان ليستطيع الآن أن يصير إلهاً– إنساناً بواسطة المسيح الله– الإنسان. وكما أنّ الله الكلمة صار إنساناً بحسب التدبير، يستطيع الإنسان أن يصير إلهاً، بحسب النعمة.

وقد جرت العادة أن نشدِّد على الثمار الأخلاقية في عيد مولد المسيح، تلك الثمار التي نبعتْ من مولد الله– إنسان أعني السلام والمحبة والاتضاع الخ. وكل هذه لا تزال قائمة لأنَّ الطبيعة البشرية اتحدت بالطبيعة الإلهية فحظيتْ بالسلام والفرح والنعمة، فالله– الإنسان فادينا قد وُلد. ''لأنه وُلد لنا مخلّص''. أجل لقد وُلد لنا الله–الإنسان فيسوع ليس حامل نبأ خلاصنا وإنما هو الخلاص عينه. وليس زائراً على عجل مرَّ بأرضنا التاعسة، وإنما هو الرأس الذي يجتمع فيه الكل من جديد. إنه خلق العالم من جديد. هو الأصل السليم الجديد الذي يحيي الطبيعة البشرية بعد أن أسقطنا في المرض أصلُ آدمَ، الخاطئ القديم. وقد نقل إلينا الحياة، لكي نستطيع أن نكون ''زيتونة صالحة''. فلا خلاص للبشر خارج الله– الإنسان. فإنّ في الابتعاد عنه تعالى تغرّب وحرمان وسقوط من الأنسنة. ومن لا يعيش مع المسيح يبتعد عن الله، وعن ذاته هو، وعن قريبه ويعتبر الله غريباً عنه ومجهولاً، وتتحوّل ذاته إلى حيوان متوحش. قال القديس مكسيموس المعترف: ''إذا نأى العقل عن الله صار محباً للشهوات بهيمياً أو متوحشاً ولهذا يمسي معادياً للناس''.

ولا يكون القريب بالنسبة إليه مصدر فرح له بل سبب عذاب. وهكذا يَفْسُدُ بعيداً عن الله–الإنسان ويتفكك، ويتجمّع في ''زُمَر'' ويمسي على صورة الوحش الذي ورد ذكره في سفر الرؤيا وهذا الوحش هو الشيطان. وينتهي إلى حالة يشذ فيها عن الطبيعة وهي حالة الصفر''.

وقد وصف اللاهوتي الصوفي نقولا كاباسيلاس الإنسان المبتعد عن الله بأنه ''غير كائن'' وهو أيضاً ''عدم'' لأنه مفتقر إلى ''الوجود بحسب المسيح''. فمن يعيش في الله–الإنسان هو الإنسان الصحيح . وعلى هذا نستطيع القول إنّ كل إنسان يقدر أن يكون إلهاً وإنساناً أو وحشاً وإنساناً. وهذا يكون نهاية التاريخ أيضاً.

فيلزمنا أن نَتَمَسْحَن وأن نتكلْمن (أن نصير مسيحاً وكلمة). ويحدث هذا إن عشنا في الكنيسة واشتركنا في أسرارها. لأنّ الكنيسة– كما يقول كاباسيلاس– يُفهم معناها وتدرك أهميتها في الأسرار المقدّسة لا كرموز بل كأعضاء بالقلب وكأعضاء في أصل نبات، وكما قال الرب ''كأعضاء في كرمة''. ويمكننا التوصل إلى هذا باللهج باسم يسوع في تريدنا ''للصلاة'' ''يا ربي يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني''، طالما أنّ هذه ''الصلاة'' مرتبطة بنوع أخصّ بالشركة الإلهية (المناولة المقدّسة) ارتباطاً وثيقاً.

هنا في هذه ''الصلاة'' القصيرة تمكن ثيولوجيا كنسيتنا المقدّسة الأرثوذكسية. لهذا ينبغي أن نذكر على الدوام اسم يسوع المفرح، الكلي العذوبة.

وليست ''الصلاة'' وقفاً على الرهبان وحدهم دون سواهم. ولا ريب أنّ لهؤلاء إمكانية جعل ''صلاة يسوع'' ملازمة لحياتهم باستمرار. غير أننا نحن الخطأة قادرون أيضاً على ترديدها.

ومن الخير أن نخصّص للصلاة وقتاً محدَّداً، وأن نشرع في ترديدها لمدة عشر دقائق في الصباح، وعشر أخرى في المساء، بشرط أن يتم ذلك بلا توقف فإنّ لهذا التحديد، ولو لمدة وجيزة ، أهمية كبرى. ثم تزداد هذه المدة بمرور الزمن لكي تملأ النفس والشفتين حلاوة وعذوبة... ولنحاول أن نتلو الصلاة أيضاً خلال سيرنا في الطريق وقبيل النوم وكلما سنحت لنا الفرص...

أما الأزواج أو أفراد الأسرة جميعاً، فيحسن أن يتلو ا''الصلاة'' في الصباح والمساء لمدة لا تتجاوز الدقائق ويقوم أحد أعضاء الأسرة بتلاوته بصوت مسموع هادئ، رصين. وقد مارس هذا الدعاء كثير من الأزواج والأسر فحدثتْ لهم عجائب...

ومن يرغب في المضّي قُدُماً في العمق أكثر، يلزمه مرشد من ذوي الخبرة. وعلينا أن ننسّق في الوقت عينه، حياتنا ووصايا المسيح، لأنّ شخص المسيح مرتبط بعمله وتعليمه، فإذا طبقنا وصاياه في سلوكنا نلنا النعمة وحظينا بالثالوث الأقدس. قال القديس مكسيموس المعترف: "من يقبل إحدى الوصايا ويعمل بموجبها كان له الثالوث الأقدس سرياً".

إن كنتَ يا أخي قد وجدتَ في الأفكار الواردة في هذا الكتاب ما ينفعك فتكرَّم بالصلاة من أجلي أنا كاتب هذه الحادثة، لكي أتوب وأجذب إليّ رحمة إلهنا، وأحيا "في الله-الإنسان"، أحيا "في الكنيسة" ولكي أعيش إلهياً وإنسانياً. إني أتوسل إليك من كل نفسي.